

## الفصل الثامن

### نشاط النثر

١

#### تطور النثر

رأينا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن النثر العربي تطوراً تطوراً خطيراً ، فقد حملت أوانيه الثقافات الأجنبية المختلفة من يونانية وفارسية وهندية وسريانية حَمَلًا لا يزال يروع الباحثين ، وكأنما كان في اللغة العربية طاقات مستكنة لكي تحمل في يسر هذه الثقافات ولا تتأبى عليها ، واشتهر كثيرون بالنهوض بهذا العمل وفي مقدمتهم ابن المقفع . ثم رَعَت الدولة الترجمة ، وأنفقت عليها إنفاقات هائلة ، بحيث كاد أن لا يبقى كتاب نفيس في الثقافات المذكورة إلا نُقل إلى العربية وبحيث يمكن أن يسمّى العصر العباسي الأول عصر النقل والترجمة . وظلت من ذلك بقايا إلى هذا العصر ، وتحول المترجمون فيه يعيدون النظر في كثير مما تُرجم في العصر الماضي ، وكانت عامة الترجمة فيه حرفية ، والفقرة من الفقر في كتاب تُترجمُ حرفياً ، اللفظة مقابل اللفظة ، مما قد يصيب الكلام بشيء من الالتواء أو التعثر أو الاضطراب في التعبير . وكان ذلك دافعاً للمترجمين أن يعيدوا النظر في كثير مما تُرجم وأن يترجموه ثانية على أساس جديد ، هو ترجمة المعاني لا الترجمة الحرفية ، بمعنى أن المترجم يقرأ الفقرة وينقل معناها كما ارتسم في ذهنه دون التقيد الحرفي حتى يطرّد نسق الكلام ولا يظهر فيه شيء من الاختلال الذي كثيراً ما تدفع إليه الترجمة الحرفية . وحقاً من المترجمين الأوائل من استطاعوا أن ينفذوا إلى هذه الطريقة الثانية للترجمة مبكرين ، على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجماته ، ولكنه كان يُعَدُّ شاذّاً وعَدَّ في الوقت نفسه من بلغاء العربية ، لأننا قلما نحس عنده نشاراً أو التواء أو انحرافاً من شأنه إفساد التعبير ،

إلا ما قد يكون أصاب بعض رسائله لطول المسافة بيننا وبينه ، وما أدخلته أيدي النسّاخ على مر العصور في كتاباته ، من بعض الخلل . وهو على كل حال خلل قليل جداً ، وبين أيدينا ترجمته لكليلة ودمنة ، وهي من أروع الترجمات القديمة ، وتَدُلُّ بحق على أنه كان أحد بلغاء العربية لعصره . ولكن ابن المقفع يُعدُّ شخصية نادرة بين مترجمي العصر العباسي الأول ، إذ لم يكن لكثرتهم بلاغته ولا فصاحته ، لذلك أحسَّ المترجمون في العصر العباسي الثاني عندهم غير قليل من الانحراف في التعبير ، وتنبَّهوا إلى أن ذلك جاءهم من الترجمة الحرفية ، فأخذوا يعيدون ترجمة كثير مما نقلوه . وكان هذا كَسَبًا للنثر العربي فإن الضَّيْمَ الذي كان يداخل الترجمات أخذ يزيلها . واتبع حنين بن إسحاق - أكبر مترجمي العصر - منهجاً في ترجمته أن يجمع للكتاب المترجم كل ما يمكنه من مخطوطاته ، وأن يعارضها بعضها على بعض مقابلاً بين عباراتها ، محاولاً أن يستخلص منها المعاني بكل دقة . وهو أستاذ المترجمين والترجمة في العصر العباسي الثاني الذي وضع بقوة فكرة ترجمة المعاني لا ترجمة الألفاظ أو الترجمة الحرفية . وكان يَعْمَلُ بين يديه كثير من الشباب في مقدمتهم ابنه إسحاق وابن أخته حبيش ، يترجمون حسب منهجه ، وهو يراجعهم ويُصَلِّح لهم بعض ما ترجموه على هدى طريقته الجديدة . وكان من الكتب التي أعادت ترجمتها هذه المدرسة كتابُ الخطابة لأرسططاليس ، ترجمه إسحاق بن حنين ويَنصُّ ابن النديم في الفهرست على أنه كان قد نُقِلَ قبل ذلك نقلاً آخر ، ولا يعيِّن صاحبه ، غير أنه يسميه « النقل القديم » . وقد يقال إذا كانت الترجمة في هذا العصر أصلحت الترجمات القديمة ، وبَدَّتْ في أسلوب عربي مستقيم ، فلماذا يبدو الخلل والاضطراب الشديد في ترجمة مَتَّى بن يونس لكتاب أرسططاليس عن الشعر ؟ وأكبر الظن أن هذا الاضطراب والخلل مصدرهما أن موضوع الكتاب وهو المأساة وما اتصل بها من الشعر القصصي لم يرتسما في ذهن مَتَّى رسماً بيّناً ، إذ كان السيراني - مثل العرب - لا يعرفون شيئاً عن الشعر اليوناني وفنونه التي ظهرت عندهم القصصية والغنائية والتمثيلية ، وهذا هو السبب فيما أصاب ترجمة كتاب الشعر لأرسطو عند مَتَّى من تعثر وخلل . وقد يكون الخلل والعثر موجودين في الأصل السرياني الذي نُقِلَ عنه الكتاب .

على كل حال انتقلت الترجمة في هذا العصر نقلة واسعة ، فقد أخذ المترجمون يتمثلون المعاني التي ينقلونها ويُسيغونها ثم يترجمونها إلى لغة عربية فصيحة لا تشوبها شوائب الترجمة الحرفية القديمة . والذي لا ريب فيه أن معرفتهم بخصائص العربية كانت أدق من معرفة أسلافهم ، إذ ذلّلها لهم علماء اللغة والبيان ، وكانت قد ألفت كتب كثيرة في بيان طوابعها ومقوماتها ، مما عرضنا له في غير هذا الموضع ، فطبعي أن يتقنها غير مترجم . وهذا نفسه يُلاحَظُ فيما أخذ ينشأ منذ العصر العباسي الأول من الأساليب الفلسفية والعلمية ، فإن هذه الأساليب لانت وأخذ يزايلها الالتواء ، بل أخذ يجري فيها الاستواء والتناسق ، وكأن الفلاسفة والعلماء أخذوا أنفسهم بإرادة قوية في الثقف بالعربية . وليس ذلك فحسب ، بل أيضاً بالسيطرة على أساليبها سيطرة تقيم تلاؤماً وتوازناً دقيقين بين الألفاظ والمعاني التي تؤدّيها ، بل إن منهم من شارك في الشعر والنثر مثل الكندي أول فيلسوف بالمعنى الكامل ظهر عند العرب ، فقد أثرت عنه بعض أشعار ، كما أثرت عنه بعض رسائل جيدة ، سنعرض لها في موضع آخر ، فهو قد أتقن العربية وفقه أسرارها وخصائصها فقهياً جيداً ، ونضرب لذلك مثلاً من أسلوبه الفلسفي ، وفيه يتحدث عن صنائع الكون ومدبره والشواهد العقلية على وجوده ، يقول (١) :

« إن في الظاهرات للحواس ، أظهرَ الله لك الخفيات ، لأوضح الدلالة على تدبير مدبرٍ أول ، أعني مدبراً لكل مدبر ، وفاعلاً لكل فاعل ، ومكوّناً لكل مكوّن ، وأولاً لكل أولاً ، وعلّة لكل علّة ، لمن كانت حواسه الآلية موصولة بأضواء عقله ، وكانت مطالبه وجدان الحق وخواصه (معرفة) الحق وغرضه الإسناد للحق واستنباطه والحكم عليه . والمزكّي عنده - في كل أمر شجّر بينه وبين نفسه - العقل . فإن من كان كذلك انتهكت عن أبصار نفسه سجوف (٢) سدّف الجهل ، وعافت نفسه مشارب عكّر العجب ، وأنفست من ركافة معالجة الزهو ، واستوحشت من تولّج (٣) ظلّم الشبهات ، وخرجت من الريب على غير تيين ، واستحيت من الحرص على

(٢) سجوف : أثار . سدّف : ظلمات .

(٣) تولّج : دخول .

(١) رسائل الكندي الفلسفية تحقيق الدكتور

عبد الهادي أبي ريدة (طبع مطبعة الاعتماد بمصر)

اقتناء ما لا تجدد ، وتضييع ما تجدد ، فلم تضاد ذاتهما ولم تتعصب لأضدادها .  
 فَكُنْ كَذَلِكَ ، كان الله لك ظهيراً ، أيها الصورة المحمودة والجوهر النفيس يتضح  
 لك أن الله ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وهو الإنيّة (الموجود) الحقّ التي لم تكن لَيْسًا  
 أبداً ، لم يَزَلْ - ولا يزال - أَيْسُ أبداً ، وأنه هو الحى الذى  
 لا يتكثّر بِنَتَّةٍ ، وأنه هو العلة الأولى التي لا علة لها ، الفاعلة التي لا فاعل لها ،  
 المتممة ، التي لا متمم لها . . . وإن في نظم (انتظام) هذا العالم وترتيبه وفعل  
 بعضه في بعض وانقياد بعضه لبعض وتسخير بعضه لبعض وإتقان هيئته  
 على الأمر الأصالح في كون كل كائن وفساد كل فاسد وثبات كل  
 ثابت وزوال كل زائل لأعظم دلالة على أتقن تدبير .

والقطعة تدل بوضوح على مهارة الكندى البيانية ، وأنها لا تقف عند فصاحة  
 التعبير ، بل تتعدى ذلك إلى إدخال تلاوين من التكرار ومن الصور البيانية ، وما المعنى  
 الذى يريد أن يوضحه الكندى ؟ إنه يريد أن يقول إن ما يبصره الإنسان من ظواهر الكون  
 ويحسه من مشاهدته ويراه من نظامه واتساق أجزائه دليل على أن هناك مديراً أعلى للكون ،  
 وضع له قوانينه ، التي تحول بينه وبين أى اختلاط أو اضطراب ، كما يشهد بذلك نظامه  
 الذى يخلو من كل عوج وخلل وفساد ، ولكنه أخرج هذه الفكرة في صورة فلسفية  
 مُطَنَّبَةٍ ، وهو في إطنابه لا ينسى خصائص الأسلوب الأدبى وجمال الترادف فيه على نحو  
 ما نرى في قوله : « أعنى مديراً لكل مديبر ، وفاعلاً لكل فاعل ، ومكوّناً لكل  
 مكوّن ، وأولاً لكل أول ، وعلّة لكل علة » ، فقد عبّر عن معنى واحد بخمس  
 كلمات متوالية ، ليقوّى المعنى ، وليضيف إليه شيئاً من الجمال الذى يلاحظ في  
 التكرار الصوتى . وهو لا ينسى أيضاً ما فى الأسلوب الأدبى من روعة التصوير التي  
 تخلب ألباب السامعين ، على نحو ما نقرأ في قوله : « فإن من كان كذلك انتهكت  
 عن أبصار نفسه سُجُوف سُدُفِ الجهل ، وعافّت نفسه مشارب عسك  
 العُجُب ، وأنفت من ركافة معالجة الزهو ، واستوحشت من تولّج ظلّم  
 الشبهات » ، والصور متلاحقة في هذه العبارات ، وكأننا بإزاء كاتب أدبى لا كاتب  
 فلسفى . وفى ذلك ما يدل بوضوح على التقاء الفلسفة بالأدب بل على امتزاجهما ،  
 فهذا الكندى الفيلسوف يعرض فلسفته فى أسلوب أدبى يشتمل على غير قليل من  
 الروعة البيانية . وتلقانا فى أسلوبه اصطلاحاته الفلسفية كاصطلاح ( الإنيّة ) بمعنى

(الموجود) واصطلاح (ليس) بمعنى المعلوم و (أيس) بمعنى الموجود . وهذه الاصطلاحات لا تجور على العبارات في الأسلوب ، بل يندمج فيها لقدرة الكندي كما قلنا آنفاً على المزج بين العبارة الفلسفية والعبارة الأدبية .

وحقاً لم يكن من وراء الكندي من المتفلسفين يبلغون مبلغه في العربية والوقوف على أسرارها وخصائصها الأدبية ولكن من الحق أنهم جميعاً عُنوا بفصاحة عباراتهم وسلامتها بقدر ما استطاعوا حتى عند من كان منهم ينادى باتخاذ مقاييس البلاغة اليونانية معياراً للفن البياني في النثر . ومثراً بنا في غير هذا الموضوع أنه كانت هناك ثلاثة أذواق : ذوق ينادى بالرجوع إلى اليونان ومعاييرهم البلاغية ، وكان يمثله المترجمون السريان ومن التفحط حولهم من الكتّاب الذين كانوا يعكفون على النظر في علم النجوم وفي المنطق والفلسفة والذين كانوا يتحدثون دائماً عن الكون والفساد ، وسمّح الكيان ، والكيفية والكمية ، والجوهر والعرض ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم مما كانوا يقرءونه في الكتب المترجمة ، على نحو ما يصور ذلك ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » . وكان يقابل هذا الذوق المجدد إلى أبعد حدود التجديد حتى ليرفض المقاييس العربية ذوقاً كان يرتضى هذه المقاييس ، بل كان يرى خطل الاحتكام إلى سواها ، فالأدب أدب عربي له ملكاته الراسخة ، وله أساليبه الموروثة المصفّاة . وينبغي ألا نعدل عن معاييرها الذاتية إلى معايير أخرى ليست من طبيعته ولا من بيئته . وكان يمثل هذا الذوق علماء اللغة المحافظون ومن سار في فلكهم . وبين الذوقين كان هناك ذوق ثالث معتدل ، لا يغلو غلو الأولين في رفض المقاييس العربية ولا غلو الأخيرين في رفض المقاييس الأجنبية ، بل يقف موقفاً وسطاً بين الطرفين المتعارضين ، فهو يعتد بالمقاييس العربية ويأخذ منها ما يوافق العصر ويلائمه ، وهو ينظر في المقاييس الأجنبية ويأخذ منها ما يتفق وروح البيان العربي . وكان يمثل هذا الذوق المتكلمون على نحو ما يلاحظ في كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ، وهو فيه يعرض ملاحظات العرب منذ الجاهلية عن البيان ومقوماته ولا يكاد يترك ملاحظة هنا أو هناك لخطيب عربي إلا ويسجلها ، وينقل عن الهند واليونان والفرس آراءهم — التي استطاع الحصول عليها — في البلاغة دون أن يُعلى فريقاً على فريق أو ينصر فريقاً ضد فريق .

وكانت بيئة المتكلمين أسبق من البيئتين الآخرين في وضع قواعد البلاغة الثرية ، إذ أخذت تحاول منذ العصر العباسي الأول وضع هذه القواعد ، وكان من أهم ما دفعها إلى ذلك تدريبُ الشباب على المهارة في الخطابة والبيان وكيف يتغلب على الخصوم في حجاجه وجدله . وكانت المناظرات مندلعة بينهما وبين أصحاب الفرق الأخرى ، وكانت تندلع أحياناً فيما بين أفرادها ، فكثير كلامهم عن صفات الخطيب وجهارة صوته ووضوح عبارته وخلابتها وملاءمة كلامه للسامعين وما يحسن من حركاته وإشاراته ودقة أدلته وبراهينه ، وكيف يقرع حجة الخصم بالحجة الناصعة وكيف ينقض كلامه نقضاً . وأخذوا يحاولون مبكرين التعرف على مقومات البيان العربي ، ودار بينهم كلام كثير عن البلاغة وقواعدها البيانية وما ينبغي في ألفاظ العبارات أحياناً من رشاقة وعدوية وأحياناً أخرى من جزالة ورسانة ، وما ينبغي للمعاني من وضوح مهما دقت مسالكها . وبحق لاحظ ابن تيمية أن هذه البيئة هي التي فرقت بين الحقيقة والمجاز وأعدت لمباحث البيان العربي المعروفة<sup>(١)</sup> . ويلقانا في هذا العصر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين الذي ذكرناه آنفاً ، وهو يشتمل على كل الملاحظات البيانية والبلاغية التي أوصى بها المتكلمون الأدباء ، حتى يجوزوا لأنفسهم بياناً ناصعاً رائعاً . وتهمنا ملاحظات الجاحظ نفسه ، لأنه هو الذي عايش العصر ، وترك آثاراً واضحة فيه ، ومن أهم ما رددّه طويلاً فكرة مطابقة الكلام للسامعين ، فلا يصحّ لتكلم أن يكلم العامة بمصطلحات علم الكلام أو يكلم علماء الكلام بكلام الأعراب الممتليّ بالغريب أو بكلام العوام المبتذل المسف يقول : « قبيح بالتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام أو في مخاطبة أهله . . . أو في حديثه إذا حدث أو في خبره إذا أخبر وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام في صناعة الكلام ، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل<sup>(٢)</sup> . ولا يملُ الجاحظ من الدعوة إلى الوضوح ، وألا يوجز كاتب ولا عالم في كلامه حتى يصبح ألغازاً ، وقد حمل على كتب الأخصس لما فيها من صعوبة وغموض ، كما حمل على كل تكلف ، يقول : « متى شاكل - أبقاك الله - اللفظُ معناه ، وأعرب عن فَحْوَاهِ ، وكان لتلك الحال وَقَفْماً ، ولذلك القدر

(٢) الحيوان ٣/٣٦٨ والبيان والتبيين ١/١٤٤ .

(١) كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٣٤ .

لِفَنقًا ، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قمينًا بحسن الموقع وبانفتاح المستمع»<sup>(١)</sup> . وتحدث كثيراً عن جزالة الألفاظ وعذوبتها وعن تلاحمها وتنافرها وعن حسن موقعها في مكان وسوئه في مكان آخر ، كما تحدث عن دقة استخدام الكلمات ، يقول : « قد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السَّغْب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في مواضع الانتقام ، والعامّة وأكثر الخاصة لا يَفْصُلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث»<sup>(٢)</sup> . ويتوقف مراراً ليشيد بجمال اختيار الألفاظ وجودة الصياغة والسبك وحسن الرِّصْف والنظم ، ونراه ينوّه بالسجع وأثره في نفوس السامعين<sup>(٣)</sup> ، كما ينوّه بالازدواج وما فيه من جمال<sup>(٤)</sup> صوتي ، وكأنه هو الذي أعدّ لهذين الأسلوبين كمن يشيعا على ألسنة الأدباء منذ عصره ، وكان هو نفسه يستخدم الازدواج كثيراً في أسلوبه ، واستخدم السجع قليلاً ، وتردّت على لسانه فنون بديعية وبيانية كثيرة ، مثل : الأسلوب الحكيم والاحتراس ، وكان يسميه إصابة المقدار ، والاعتراض ، والكناية والحقيقة والمجاز والاستعارة والتشبيه والتمثيل . وبذلك هيئاً فيما بعد لابن المعتز أن يكتب كتابه البديع مصوراً فيه المحسنات البيانية والبديعية وفيه ينص على أن الجاحظ اكتشف بين تلك المحسنات محسناً عقلياً هو « المذهب الكلامي » ويريد به الجاحظ دقة حَيْبَل المتكلمين في الغوص على الحجج والعلل والمعاذير . وظلت كتابات الجاحظ في البيان والتبيين وكذلك في الحيوان مخازن لا تنفذ للبلاغيين المتأخرين ، كل يأخذ منها حسب ذوقه وقدرته العقلية .

وقدّمت بيئة اللغويين كتباً مختلفة ، منها ما يعتمد على رواية الأشعار الغربية وبعض أخبار عن الأعراب مثل مجالس ثعلب ، ومنها ما يُعْنَى بضبط ألفاظ وتفسيرها مثل كتابه «الفصيح» ، وأهم كتاب قدمته هذه البيئة كتاب الكامل للمبرد ، وهو معرض جيد لهاذج من الشعر والنثر ، لا تبلغ في الغرابة مبلغ نماذج ثعلب في

(٣) البيان والتبيين ١/٢٨٤، ٢٩٧، ٤٠٨ .

(٤) البيان والتبيين ٢/١١٦ .

(١) البيان والتبيين ٢/٧ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٠ .

مجالسه ، ولذلك شُغف الأدباء في عصر المبرد وبعد عصره بهذا الكتاب ، وعدُّوه أحد كتب الأدب الأربعة الأساسية . ونراه يتأثر بما كتبه الجاحظ عن فنون البيان ، فيشير إلى الحقيقة والمجاز والاستعارة ، ويتحدث عن الكناية ويوزعها على ثلاثة أنواع ، فهي إما للتعمية وإما لتحاشي اللفظ الحسيس وإما للتفخيم<sup>(١)</sup> ، ويجعل التشبيه أربعة أضرب ، فهو إما تشبيه مفرط ، وإما تشبيه مصيب ، وإما تشبيه مقارب ، وإما تشبيه بعيد<sup>(٢)</sup> . والكتاب يمثل ذوقاً محافظاً ، فليس فيه أى شيء يتصل بآراء الأجانب في البيان والبلاغة ، وليس فيه أى استضاءة بهذه الآراء . ومن الغريب أن نجد ابن قتيبة ، وسنعرّف في موضع آخر أنه كان مثقفاً بالثقافات الأجنبية المعاصرة ، ينجح في ذوقه إلى هذه البيئة اللغوية المحافظة في كتابه « أدب الكاتب » وقد مضى فيه يعرف الكُتّاب بالاستعمالات اللغوية الصحيحة للكلمات ، فمن ذلك الطَّرب يذهب الناس إلى أنه في الفرح دون الجزع ، وليس كذلك إنما الطرب خفةٌ تصيب الرجل لشدة السرور أو لشدة الجزع<sup>(٣)</sup> ، ومن ذلك المأتم يذهب الناس إلى أنه المصيبة ، يقولون كنا في مأتم ، وليس كذلك إنما المأتم النساء يجتمعن في الخير والشر ، والجمع مأتم ، والصواب أن يقولوا كنا في مناحة ، وإنما قيل لها مناحة من النوائح لتقابلهن عند البكاء<sup>(٤)</sup> . ويظل يفتح نحو خمسين باباً لتعليم الكُتّاب ألفاظاً يجب أن يعرفوا دقة استخدامها ، منها ما يتصل بأسماء الحيوان ومنها ما يتصل بأسماء الأفلاك ، ومنها ما يتصل بأسماء النبات ، ومنها ما يُعرَّفُ واحده ويُشكّل جمعه ، ومنها ما يتصل بالطعام أو الشراب أو الثياب أو السلاح . ويخرج من ذلك إلى أبواب تتصل بكتابة الكلمات من ذوات الألف أو الواو أو الياء إلى غير ذلك . وينتقل إلى أبواب تقويم اللسان ناصباً فيها على ما يسببه السماع للعامّة من الوقوع في الخطأ كأفعال تُهمزُ والعامّة تدع حذفها وما هو بالسين ويقولونه بالصاد وما جاء مفتوحاً وهم يكسرونه إلى جَمٍّ من مثل هذه المسائل . ويمضى إلى أبنية الأفعال ومعانيها وأبنية الأسماء ومعانيها ، وفي أثناء ذلك يعقد باباً طريفاً<sup>(٥)</sup> لما يتكلم به العامّة من الكلام الأعجمي ، سواء

(١) ليدن ص ٢٢ .

(١) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ٤١٢ .

(٤) أدب الكاتب ص ٢٤ .

(٢) الكامل ص ٥٠٦ .

(٥) أدب الكاتب ص ٥٢٦ .

(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة)

أكان أصله رومياً أم نبطياً أم فارسياً أم سريانياً . والذوق العام في الكتاب ذوق لغوى محافظ شديد المحافظة .

وعلى ضوء الذوقين اللذين وصفناهما للبيئتين السالفتين صنّف معاصر لابن قتيبة هو إبراهيم بن المدبر المتوفى سنة ٢٧٨ رسالة<sup>(١)</sup> بديعة في موازين البلاغة وأدوات الكتابة ، سماها الرسالة العذراء ، وهي أول رسالة تناولت بدقة صناعة النثر ، وهو يستهلها بأن شخصاً طلب إليه أن يعرفه بجموع أسباب البلاغة وآداب الكتابة ، ويشيد بهذه الصناعة ، ويطلب ممن يريد حيدّقها طول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكماء ورسائل المتقدمين والمتأخرين والوقوف على الأشعار والأخبار والسير والأسمار والخطب ومحاورات العرب ومعاني العجم وحدود المنطق وأمثال الفرس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم ، مع التزود بالبحر والتصريف واللغة والفقه . وابن المدبر بذلك كله يلتقي بذوق علماء الكلام كما يمثلهم الجاحظ فيما حكاها من الثقافات الأجنبية ، كما يلتقي بعلماء اللغة والتصريف ، فهو ينصّئ بهم جميعاً . ويدعو من يريد التخصص بهذه الصناعة أن يمهر في نزع آي القرآن الكريم ووضعها في مواضعها ، وكذلك الأمثال والأشعار وإن كانت الأخيرة لا تُستحسب في مخاطبة الخلفاء ، وهو في هذه الملاحظة يستمد من الجاحظ مباشرة<sup>(٢)</sup> وقد استمد منه كثيراً في رسالته . والمهم أنه يشيد في تكوين ثقافة الأديب بالثقافة العربية ، ويضعها جنباً إلى جنب مع الثقافات الأجنبية ، مما يدل بوضوح على أنه كان يتأثر ببيئة المتكلمين متأثراً عميقاً . ويتحدث عن زِي الكاتب وحسن هندامه ، ويطلب - في إلحاح - كما طالب الجاحظ من قبله بالملاءمة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس من الخلفاء والوزراء والكتّاب وولاة الثغور وقواد الجيوش والقضاة والعلماء وذوى النباهة والظرف . ويقول إن لكل طبقة من هذه ما يناسبها من الألفاظ والمعاني ، حتى لا يُجرى الأديب شعاع بلاغته في غير مساربه ولا يتنظم جوهر كلامه في غير سبيلكه . ولا بد - كما قال الجاحظ مراراً وتكراراً - من المشاكلة الدقيقة بين الألفاظ والمعاني ، حتى توضع الألفاظ في مواضعها وتنزل

(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٨ .

(١) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي

مواطنها . ثم يتوقف - مهتدياً بابن قتيبة - إزاء أبنية ينبغي تركها واستعمال أبنية أخرى ، فمثل الدعاء : « أبقاك الله طويلاً » ليس مُسْتَحَبّاً ، إنما المنسحب « أطال الله بقاءك » مع أنه لا فرق في المعنى بين العبارتين ، ولكنهم جعلوا الثانية أرجح وزناً وأنبه قدرأ . وكذلك الدعاء : « جُعِلتَ فِدَاك » يرى أنه قد ابتذل حتى مَجِّتَهُ الأفواه ، إلى غير ذلك من أدعية كانت تنبوع عن ذوق الأدباء من أمثاله .

ويقول إن مديح الخلفاء والوزراء في الرسائل ينبغي ألا يكون بالفروض الواجبة مثل : يصدق في وعده وبنى بعهدته ، لأن ذلك من الواجبات التي ينبغي أن تكون في كل شخص . ولا بد أن يعرف الأديب لكل كلمة مكانها ، ويضرب مثلاً لذلك أن شخصاً كتب إلى داود بن خلف الأصبهاني معاصره صاحب مذهب الظاهرية عن شخص آخر على هذا النمط : « وإن قال كذا فقد خرج عن الملة ، والحمد لله » ورد عليه داود متعجباً عن وضع الحمد في هذا المكان قائلاً : « تحمد الله على أن تُعْزَجَ امرءاً مسلماً من الإسلام ، هذا موضع استرجاع ، وللحمد مكان يليق به ، وإنما يقال في المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون » . وَيَطْلُبُ ابن المدبّر أن يوضع مع ذكر الشكوى مثل : « والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » ، ومع ذكر البسّوى : « نسأل الله دفع المخذور ، ونسأل الله صرف السوء » ومع ذكر النعم مثل : « الحمد لله خالصاً ، والشكر لله واجباً » . ويمضى في إثر الجاحظ ، فيقول إنه لا يجوز في الرسائل الإيجاز المفرط ولا استعمال الألفاظ المشتركة أو المبهمة ولا محاكاة الشعر فيما يجري فيه من حذف أو ضرورات . ويحذّر من استعمال كلمة « إياك » ويحسّ ثقلها في مثل « كلمت إياك » . وَيُسَبِّدُ وَيُعِيد - على ضوء الجاحظ - في أن الألفاظ ينبغي أن توضع في مواقعها بدقة . ويدعو إلى الاستهلال في مقدمات الرسائل بحيث تشير في صدرها إلى المراد منها ، ويوصى بعدم إطالة المقدمات في الكتابة ، ويقول إنها ينبغي ألا تزيد عن سطرين أو ثلاثة . ثم يُفِيضُ في أوصاف القلم واختيار مادته وطريقة برّيه وأنواعه وأجودها ، ويوصى بعدم إغفال الصلاة على الرسول عليه السلام . وَيَلْتَفِتُ إلى كيفية كتابة التاريخ بالقياس إلى الشهر ، فإن كان الماضي أقل من نصف الشهر قال الكاتب : لكذا ليلة مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقي أقل من النصف قال : لكذا ليلة بقيت . ويتحدث عن القراطيس والكتابة فيها وطبيعتها . ويشير - على هدى ابن قتيبة - إلى العناية

بميزان التصريف . ويعود إلى وضع الألفاظ في أماكنها ، ويُنْهَى - كما نهى المتكلمون من قبل - مَنْ لَيْسَتْ لَهُ موهبة أدبية عن محاولة الانتظام في هذه الصناعة . وينقل عن أحد المتكلمين ، وهو العتّابي ، رأيه في اختيار الألفاظ وصعوبته . وينصح الكاتب بِعَرَضِ ما يكتبه في باكورة حياته على المختصين ليروا مقدار صلاحيته للصناعة . وَيُنْهَى - على هدى الجاحظ - عن الألفاظ الحوشية والمبتذلة ، وينقل عنه إعجابُه بالكتّاب إذ قال : « ما رأيت قوماً أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب ، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً » . ويعود إلى فكرة الوضوح الجاحظية . وينقل عنه بعض كلامه . ويذكر أرسطو وينقل عنه بعض ما قاله في النَّصْبَةِ التي تدل على اللفظ والإشارة والخط والعقد كأعلام الأفراس ، وينقل أيضاً عنه حَدَّةَ للإنسان وأنه الحى الناطق ، وهو بذلك يقترّب من ذوق المتكلمين وانتفاعهم ببعض ما تُرجم دون الذوبان فيه . ويبيّن أهمية الكتب المحبّرة تحبيراً جيداً في استنزال الجبارة وأنها قد تصنع ما لا تصنعه الجيوش اللّجبة . ثم يسوق صفحات جلتبها من البيان والتبيين عن تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة . ولا يكتفي بذلك بل ينقل أيضاً الصحيفة التي دوّنها الجاحظ عن الهنود في البلاغة ، ويتلوها بما دوّنه عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين مثل خالد بن صفوان وعمرو بن عبيد والخليل بن أحمد ، وكل ذلك دليل واضح على أن ابن المدبر وضع نُصْبَ عينه في كتابته لرسالته العذراء ابن قتيبة والجاحظ ، ولكن أثر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين أبعد مدى وأعمق أثراً .

وحى الآن لم نتكلم عن كتاب يمثل بيئة المترجمين والمتفلسفة ومن كان ينهج نهجهم في الدعوة لمعايير البلاغة اليونانية ، ولعل خير كتاب قدمته هذه البيئة في مجال النثر والكتابة هو الكتاب الذي نُشِرَ باسم نقد النثر منسوباً إلى قدامة بن جعفر ، وقد تبين فيما بعد أنه جزء من كتاب البرهان في وجوه البيان لإسحق بن إبراهيم بن سايان ابن وهب ، وهو من أسرة ظلت تعمل في دواوين الخلفاء العباسيين منذ المأمون ، وكان جده وزيراً للمهتدي والمعتمد ، وتوفي سنة ٢٧٢ فبينه وبين حفيده جيل واحد مما يدل على أنه ممن عاشوا بأخرة من هذا العصر . ونراه في مستهل كتابه يُزرى على كتاب الجاحظ : « البيان والتبيين » ، وهذا طبيعي لأنه يمثل بيئة المتفلسفة

والمترجمين التي كانت تعارض المتكلمين في مقاييسهم البلاغية ، لأنهم لم يستوعبوا في رأيه كتابات أرسطو في المنطق والجدل والخطابة . وهو يفتتح كتابه بمباحث في العقل تدل على أنه شيعي إمامي ، ويعقد فصلاً للقياس يحلله فيه على طريقة أرسطو ، ويقول إنه جعل عماداً وعتماً على العقل كما جعل البركار لتقويم الدائرة والمسطرة لتقويم الخط . ويفيض في مباحث تتصل بالأخبار وبالفقه . ويتكلم عن بعض خصائص التعبير كما يتكلم عن الرمز ويقول إنه أتى منه كثير في كتب المتقدمين من الفلاسفة وكان أكثرهم استعماله أفلاطون . ويعود إلى الحديث عن بعض خصائص العبارات وعن الأمثال والاتفات وعن المبالغة ويرتضيها متأثراً بأرسطو ، ويعرض لمبحث الفصل والوصل بين العبارات وكذلك لمبحث التقديم والتأخير . ويقسم الكلام المشور إلى خطابة وترسل واحتجاج وحديث ، وينوّه بالإيجاز الذي حذر الجاحظ منه ، ويقول إن أرسطو وأوقليدس كانا شديدي الإيجاز ، بينما امتاز بالإطناب جالينوس ويوحنا النحوي . ويعقد فصلاً في نحو عشرين صحيفة ، أجمل فيه كتاب الجدل لأرسطو . وواضح أنه توسّع في تشريعه للنثر العربي ووضعه لمعاييره في الأخذ عن كتابي أرسطو في المنطق والجدل . وهو أخذ يبدو فيه الجفاف وأنه ينبو عن الذوق العربي ، ولذلك لم يلدق هذا الكتاب ترحيباً من المتأديين . وكان لذلك أثره في أن نقاد العرب لم ينقلوا عنه شيئاً في كتاباتهم عن الخطابة والنثر . إذ رأوه يحتكم إلى أشياء غير وثيقة الصلة بأدبهم ، ومن أجل ذلك ظل الكتاب وصاحبه مجهولين من عامة النقاد . ولا نبعد إذا قلنا إن بيئة المتكلمين هي التي سيطرت بما وضعتها من معايير على أذواق الكتاب والأدباء في العصر ، وظل ذلك حقيقاً متطاوأة ، وهي كما قلنا بيئة معتدلة كانت تزوج بين المعايير العربية والمعايير الأجنبية بحيث ظلت أوضاع العربية قائمة ، كما ظلت مقوماتها حيّة ، مقومات تعتمد على التراث القديم وتتطور بما يلائم العصر والثقافات الحديثة ، تطوراً لا يتجسّس على العربية ، بل تجنى منه ثماراً رائعة ، غذاء للعقول وشفاء للقلوب والأرواح .

وعلى هذا النحو كان ذوق بيئة المتكلمين هو الذوق الأدبي العام ، وكان لذلك أثره في أن ازدهر النثر العربي وأخذت موضوعاته تنوعاً واسعاً ، وقاد هذا الازدهار الجاحظ المتكلم المشهور ، إذ نراه يُعنى بتصوير الطبقات في مجتمعه ، فهو يكتب عن الأتراك والسودان والموالي والعرب والنصارى واليهود ، ويتنفسح

للطبقات العامة ، فيكتب عن اللصوص والمُكسدين وحيثلهم والقيان والمرأة .  
وكأنما أحدث موضوعات جديدة لكتب السمر التي كانت تُقَرَأ في كل مكان .  
وكانت قبله لا تعدو بعض كتب الآداب الفارسية وبعض قصص الحب العربية  
وقصص البطولة والإسرائيليات . وظل الاتجاه إلى ترجمة بعض القصص الفارسية  
قائماً ، وكان أهم ما تُرجم في هذا العصر حكايات ألف ليلة وليلة واسمه بالفارسية  
هزار أفسان أى ألف حكاية . ويُفهم من كلام المسعودي عنه أن حكايات  
السندباد لم تكن جزءاً منه في عصره ، بل كانت مستقلة . ويقول إن مؤلفها حكيم  
هندي يسمى السندباد ، وهي تشتمل على كتاب الوزراء السبعة ، والمعلم والغلام ،  
وامرأة الملك . ويذكر المسعودي أنه كانت هناك حكايات مماثلة تُرجمت عن  
الرومية<sup>(١)</sup> . وما تُرجم حينئذ أو قل مما استمد من أصول فارسية كتاب التاج  
المنسوب إلى الجاحظ ، وقد ألّفه أحد معاصريه وقدّمه إلى الفتح بن خاقان وزير  
المتوكل ، وهو يصور نُظُم الساسانيين حُكّام الفرس قبل الإسلام وتقاليدهم .  
ومعنى ذلك أن النقل عن الفارسية ظل محتدماً في هذا العصر ، ولكن أخذت  
الشخصية العربية تُشبت وجودها في قوة ، فبمجرد أن تُرجم كتاب ألف ليلة وليلة  
ألف محمد بن عبدوس الجهشياري المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتاباً على نسقه به ألف  
حكاية من حكايات العرب وغيرهم . وظهرت في العصر كتب أسمار كثيرة ، كانت  
تتلهف عليها العامة ، وخاصة ما دار منها حول الحب وأقاصيصه أو حول الجن  
أو حول بعض النساء . وكثرت كتب النوادر والكتب التي تصور أحوال الحمقى  
وأقوالهم وأفعالهم ، وكتب الندماء والمنادمة ، وكذلك الكتب التي تصور أخلاق العامة  
مثل كتابات مساوى العوام وأخبار السفلة والأغنام للصيمري .

وكثرت كتب الأدب التهذيبي ، ومن أكثر منها ابن أبي الدنيا المتوفى  
سنة ٢٨١ وقد نُشر في القاهرة مختصر صنعه السيوطي لكتابته الفرج بعد الشدة ،  
وكانت له كتب مختلفة في مكارم الأخلاق . ومثله محمد بن خلف بن المرزبان

(١) انظر في ذلك كله مروج الذهب

المتوفى سنة ٣٠٩ وقد ترجم كتباً كثيرة عن الفارسية وله تصانيف حسان في الأخلاق وأحوال الناس ، منها كتابه : « تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » ، ومثلهما أبو بكر الخرائطي السامري المتوفى سنة ٣٢٥ ، وله مكارم الأخلاق ومعالها وعمود طرائقها ومراضيتها ، نُشر بالقاهرة .

وبجانب كتب الأدب والسمر فتح الجاحظ موضوعاً جديداً ، هو وصف البلدان ، إذ أَلَّف كتاباً فيه سماه كتاب الأمصار وعجائب البلدان تحدث فيه عن مكة وقريش والمدينة ومصر والبصرة ، وذكر خصائص كل بلدة وطباع أهلها وأثر البيئة فيها<sup>(١)</sup> . ويبدو أنه اعتمد في وصف بعض البلدان على بعض الإخباريين مما جعله يخطئ في جوانب من كلامه على نحو ما لاحظ المسعودي إذ يقول : « وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذي هو نهر السند من نيل مصر ، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، ولست أدري كيف وقع له هذا الدليل ، ذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان . . . لأن الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار . . إنما كان ينقل من كتب الـورّاقين<sup>(٢)</sup> . » وملاحظة المسعودي صحيحة ، ولكنها لا تغضُّ من أهمية هذا الكتاب الذي فتح به الجاحظ لمعاصريه موضوعاً جديداً للكتابة ، وكان ممن تابعه فيه معاصره يعقوب بن أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ، وكتابه البلدان منشور . وتعاقبت بعد ذلك الكتب في هذا الموضوع . والمهم أن الجاحظ أثار في كتابه بقوة فكرة البيئة وطوابعها في السكان ، وقد كتبه بأسلوبه الأدبي البارع .

### الخطابة والمواظ والنثر الصوفي

ضعفت الخطابة السياسية في هذا العصر ، كما ضعفت الخطابة الحفلية ، فكلاهما أصبح شيئاً نادراً ، وحتى ما بقى منهما إنما هو شظايا قليلة كتلك الشظايا

(٢) انظر مروج الذهب ١١٤/١ .

(١) راجع كتاب الجاحظ للدكتور طه الحاجري (طبع دار المعارف) ص ٣٨٩ وما بعدها .

التي حكاها الطبري عن صاحب الزنج، بل لقد أجمل ما رواه من خطبه<sup>(١)</sup> بحيث لا تكاد نتيينها في وضوح. وضعفت الخطابة الدينية على ألسنة الخلفاء وإن ظلت مزدهرة في المساجد وفي خطب الجمع والعيد، فقد أصبح من المعتاد ألا يخطب الخليفة يوم الجمعة إلا ما كان من الخليفة المهتدي الورع الذي ظل في الحكم نحو عام، فإنه كان يذهب إلى المسجد الجامع بسامراء في كل جمعة ويخطب الناس ويؤمهم<sup>(٢)</sup>، ويروى أن الخليفة المعتضد حاول أن يخطب في بعض الأعياد، فأرتج عليه ولم تُسمع خطبته<sup>(٣)</sup>، ولم يخطب خليفة بعده في العصر سوى الراضي، ولم تؤثر خطبه.

ولكن الخطابة الدينية إن كانت قد ضعفت على ألسنة الخلفاء فإنها نشطت نشاطاً عظيماً في المساجد فقد كانت تُعمِّدُ حلقات للوعاظ والقصاص وكان الناس يتحلّقون من حولهم فيما يشبه احتفالات الأعياد، وكان منهم الرسميون الذين تعيّنهم الدولة للخطابة في أيام الجمع ومنهم غير الرسميين، وهم الجمهور الأكبر. وكانوا يستمدون في وعظهم وقصصهم من القرآن الكريم والحديث النبوي وقصص الأنبياء والمرسلين، ومنهم من كان يقرأ القرآن الكريم ويفسره، وكانوا يُعَسِّونَ بعَوْن الضعفاء والمساكين واليتامى وبالجهاد وحرب الأعداء مستعينين في ذلك بأعمال البر. وكثير منهم كان يذهب مع الجيوش المجاهدة للوعظ في الحرب وبث روح الحماسة الدينية في نفوس المجاهدين من مثل أبي العباس الطبري الذي مرّ ذكره والذي كان يعظ ويقص على المجاهدين في طرسوس. ولم يكن يخلو يوم من أيام رمضان من واعظ أو قاص بعد الصلاة. وكانت العامة تشغف بهم شغفاً شديداً، حتى ليضحكى عن الطبري أنه تعرّض لقاص ببغداد يُنكر عليه بعض ما يقوله، فصاحت به العامة ورموا باب داره بالحجارة. ولا بد أن تفرق بين هؤلاء القصاص الوعاظ وبين قصاص آخرين كانوا يجلسون للشباب والغلمان في الطرقات ببغداد ويقصّون عليهم نوادر الأخبار والحكايات الهزلية، وكانوا يُسلِّكون في المشعوذين، ويضطرب بعض المستشرقين فيخلط بينهم وبين القصاص الوعاظ،

(١) الطبري ٩/٤١٤ وما بعدها.

(٢) طبري ١٠/٣١.

(٣) مروج الذهب ٤/٩٦.

ولا صلة بين الطرفين إلا في الاسم ، وهؤلاء هم الذين كانت الدولة تطاردهم أحياناً كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، أما قُصَّاصُ المساجد الوعَّاظ فكانوا موضع رعاية الدولة منذ عصر بني أمية ، وظل ذلك بعدهم ، حتى لنجد بعض من يُسند إليهم القصص في المساجد يُسندُ إليهم القضاء<sup>(١)</sup> . أما الوعَّاظ فكان منهم دائماً خطباء المساجد في الجمع والأعياد وأتمتها في الصلاة ، وكان منهم كثيرون فُصَّحاءَ بُلغَاءَ ، فكان الناس يحتشدون حولهم ، مُكبرين لهم لإكباراً عظيماً .

وكانت المساجد دائماً مفتوحة ليلاً ونهاراً ، ودائماً يوجد فيها الناس للصلاة وتوجد فيها حلقات التدريس ، فكان الواعظ يختر أي وقت يشاء لموعظته ، وإن كان عادة يجعلها تالية لبعض الصلوات . ومن كبار الوعَّاظ الذين شهدتهم بغداد في العصر أبو الحسن علي بن محمد الواعظ المصري المتوفى سنة ٣٣٨ وكان يحضر مجلس وعظه الرجال والنساء .

وأخذت تنشأ منذ أوائل العصر طبقة جديدة من الوعَّاظ ، كانوا يسمون بالمدكِّرين ، ويسمى مجلسهم باسم مجلس الذكر أي ذكر الله وتسيححه ، وكانوا من الصوفية ، بل كانوا خطباءهم ووعَّاظهم الممثلين صلاحاً وتقوى وورعاً ، وكانوا يعظون الناس في المساجد وفي الزوايا ، خالطين الخوف بالرجاء ، مستشهدين ببعض آي القرآن وبعض الحديث ، وقد يفسرونهما ويعلقون عليهما ، مضيفين من حين إلى حين عباراتهم الصوفية التي تأسرُ العقول والقلوب . ومن وعَّاظهم في العصر يحيى بن معاذ الرازي المتوفى عام ٢٥٨ ويسرَى أنه جاء إلى شيراز ، فصعد المنبر ، واجتمع إليه الناس فأول ما بدأ به قوله :

مَوعَظُ. الواعِظِ لَنْ تُقْبَلَ حَتَّى يَعِيَهَا قَلْبُهُ أَوَّلًا

وانهال الناس عليه بعد ذلك انهياراً . ومن أكبر وعَّاظهم في العصر أبو حمزة الصوفي المتوفى سنة ٢٦٩ وهو — كما مرَّ بنا في الفصل الثاني — أول من تكلم على رموس المناير ببغداد خالطاً موعظه باصطلاحات

(١) الولاية والقضاء للكندي (طبعة جيبست) ص ٤٢٧ .

الصوفية وأفكارهم من صفاء الذكر وجمع الهمم والحبية والعشق والأنس . وكان هؤلاء الوعّاظ يجذبون إليهم الناس بأكثر مما يجذبهم الوعّاظ العاديون لقيام حياتهم على الزهد والتقشف ورفقّص كل متاع .

وتكوّنت حول هؤلاء الوعّاظ من المتصوفة سريعاً حكايات كثيرة تصوّر جهادهم العنيف في قسّمع شهوات النفس ولذاتها وكيف كان الصوفي يفرض على نفسه عسّاء شاقّاً مضنيّاً لا يطيقه إلا أولو العزم . وعادة تحتوى القصة أو الحكاية ما يلفت الصوفي إلى تقصيره وأن عليه أن يتحمل أهوالاً ثقالاً ، فن ذلك ما يروى عن بشر الحافي المتوفى قبيل هذا العصر سنة ٢٢٧ من أنه مرّ ببعض الناس فسمعهم يقولون : هذا الرجل لا ينام الليل كله ولا يفطر إلا في كل ثلاثة أيام مرة ، فبكى حين سمعهم يردّون هذا الكلام ، وسأله سائل : ما يبكيك ؟ فقال : إني لا أذكر أنى سهرت ليلة كاملة ، ولا أنى صحت يوماً ولم أفطر من ليلته ، ولكن الله سبحانه وتعالى يلقى في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفاً منه سبحانه<sup>(١)</sup> وكرماً . ويحكى عن السرى السقّطى المتوفى سنة ٢٥١ أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة ، فإذا أصبح جاءت عصفورة ، وأكلت تلك اللقمة من يده ، وذات يوم اشتهى أن يأكل الخبز بالقديد (لحم مقدّد) فامتعت العصفورة من أكل اللقمة التي تعودت أكلها ، فعاهد نفسه ألا يتناول أبداً شيئاً من الإدام<sup>(٢)</sup> . ويروى ابن أخته الجسّيد أنه دخل عليه يوماً ، فوجده يبكى ، فقال له : ما يبكيك ؟ فقال : جاءتني البارحة الصبية ، فقالت : يا أبت هذه ليلة حارة ، وهذا الكوز أعلّقه ههنا ، ثم إني نمت فرأيت جارية من أحسن الخلق نزلت من السماء فقلت لها : لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرّد في الكيزان ، فتناولت الكوز ، فضربت به الأرض فحطّمته<sup>(٣)</sup> . وهما خبران رمزيان يصوران ما كان يأخذ به السرى نفسه من الشظف في العيش والحمران الشديد . ويحكى عن رؤيم بن أحمد المتوفى سنة ٣٠٣ ، وكان مجرداً من الدنيا زاهداً ورعاً ، أنه اجتاز في بغداد وقت الهاجرة ببعض الطرقات وهو عطشان ، فاستسقى من دار ، ففتحت

(٢) القشيري ص ١٠ .

(١) رسالة القشيري (طبعة سنة ١٣٤٦ هـ)

(٣) القشيري ص ١١ .

بصر) ص ٢٠ .

الباب صبيّة ومعها كوز ماء ، فأخذه منها وشرب ، فاستدارت له قائلة : صوفى يشرب بالنهار ! فما أفطر بعد ذلك اليوم قط (١) .

وهذه الحكايات الصوفية أخذت تكون ضرباً من ضروب الآداب الشعبية العربية ، إذ كان الناس يتداولونها رجالاً ونساءً وشيباً وشباناً ، وكان التصوف كان عاملاً قوياً في ظهور تلك الآداب وطبعتها بطوابع الشعب ولغته وألفاظه . وتتصل بها الحكايات التي أخذت تؤثّر عن كرامات المتصوفة ، ومرّ بنا في الفصل الثالث أن الحكيم الترمذى المتوفى سنة ٣٢٠ صنّف في تلك الكرامات كتاباً سمّاه « ختم الولاية » يريد ولاية الصوفية وأنهم أولياء الله في أرضه ، ولذلك تظهر على أيديهم كرامات كثيرة . ومن تكثّر لإضافة الكرامات إليه في هذا العصر بُنّان الحمّال المصرى المتوفى سنة ٣١٦ ، فقد قيل إن خمارويه أمر بأن يُطرح بين يدي سبع ، فطرح وبقي ليلته ، وجعل السبع يشمه ولا يضره ، فلما أصبحوا وجدوه قاعداً مستقبل القبلة والسبع بين يديه . وعجب خمارويه ، فأطلقه واعتذر إليه (٢) . وحكى أنه كان لرجل على آخر دين : مائة دينار ، بوثيقة ، فطلب الرجل الوثيقة فلم يجدها ، فجاء إلى بُنّان ليدعو له ، لعله يجد الوثيقة الضائعة ، فقال له بنان : أنا رجل قد كبرتُ وأحب الحلواء ، اذهب إلى قريح ( حلوانى ) فاشتر رطل حلواء واثنى به ، أدعوك ، ففعل الرجل ، وجاءه . فقال له بنان : افتح ورقة الحلواء ، ففتحتها ، فإذا هي الوثيقة ، فقال : هذه وثيقتى ، فقال بنان : خذها ، وأطعم الحلواء صبيانك . ولم يكن يؤمن بمثل هاتين الكرامتين إلا عوامُ المتصوفة ، وهو ما يعيننا ، إذ دارت حكايات هذه الكرامات على السنة العامة ، وبذلك كان التصوف عاملاً قوياً في العصر على ذبوع لون شعبي جديد من الأدب ، وهو لون قصصى ، وقد أخذت تؤلف فيه المصنّفات مثل كتاب « ختم الولاية » الآنف ذكره ، وكانت بدورها مصنّفات شعبية تتداولها كثرة من الأيدي . ولعله من المهم أن نعرف أن خاصة المتصوفة وكبارهم في العصر كانوا ينكرون هذه الكرامات إنكاراً باتاً ، فيُحكى عن أبي يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ أنه قيل له إن فلاناً يمشى في ليلة إلى مكة ، فقال :

الزاهرة ٣ / ٢٢١ .

(١) القشيري ص ٢١ .

(٢) انظر في هذه الحكاية وقاليها النجوم

الشیطان یمشی فی ساعة من المشرق إلى المغرب فی لعنة الله . وقیل له : فلان یمشی على الماء ویطیر فی الهواء ، فقال : الطیر یطیر فی الهواء والسمک یمر على الماء<sup>(١)</sup> . وجاء رجل إلى سهل التستری المتوفى سنة ٢٧٣ ، فقال له : إن الناس یقولون إنک تمشی على الماء ، فقال له : سئل مؤذن الحلة ، فإنه رجل صالح لا یکذب ، قال : فسألته ، فقال المؤذن : لا أدری هذا ، ولكنه نزل حوض الماء فی بعض الأيام لیتطهر ، فوقع فی الماء ، فلولم أکن أنا لبقی فیهِ<sup>(٢)</sup> . ویروى عن بعض الصوفیة أنه قال : کان فی نفسی شیء من هذه الکرامات ، فأخذت قصبه من الصبیان وقمت بین زورقین ، ثم قلت : وعزتی لئن لم تخرج لی سمكة قدرها ثلاثة أرتال لأغرقن نفسی ، قال : فخرجت لی سمكة قدرها ثلاثة أرتال ، فبلغ كلامه الجسیند ، فقال : کان حقه أن تخرج له أفعی تلدغه .

والمهم أن التصوف نشرَ بهذه الحکایات المتصاة باحتمال المتصوفة لأنقال الشظف وما اعتقدته العامة فیما جرى على أیدیهم من الکرامات أدباً شعبیاً قصصیاً کان یدور بین الناس . ولون ثالث من هذه الحکایات کان یقص أخبار المتصوفة لعل خیر ما یصوره کتاب أخبار الحلاج ، وهو أخبار وحکایات عنه بأسنة تلامیذه . تحمل أحواله وآراءه ومعتقده ، فن ذلك ما رواه تلمیذه إبراهیم الحلوانی . قال<sup>(٣)</sup> :

« دخلت على الحلاج بین المغرب والعشاء . فوجدته یصلی . فجلست فی زاویة البیت . كأنه لم یحسّ بی لاشتغاله بالصلاة ، فقرأ سورة البقرة فی الركعة الأولى . وفی الركعة الثانية آل عمران ، فلما سلم سجّد وتکلّم بأشیاء لم أسمع بمثلها ، فلما خاض فی الدعاء رفع صوته كأنه مأخوذٌ عن نفسه . ثم قال : یا إله الآلهة ویا ربّ الأرباب ویا من ( لا تأخذه سنة ولا نوم ) ردّ إلىّ نفسی لثلاثین بی عبادک . یا هو أنا : وأنا هو ، لافرق بین إنسیّ ( وجودی ) وهویّتی إلا الحدوث والقیدم . ثم رفع رأسه ونظر إلىّ وضحك فی وجهی ضحکات . ثم قال : یا أبا إسحق أما ترى أن ربی ضرب قیدمه فی حدوثی حتى استهلك حدوثی فی قیدمه ، فلم

(٣) أخبار الحلاج ص ٢٠ .

(١) القشیری ص ١٦٣ .

(٢) القشیری ص ١٦٤ .

يبقى لى صفة إلا صفة القديم ، ونُطْقِي في تلك الصفة . والخلق كلهم أحداث ينطقون عن حدوث . ثم إذا نطقتُ عن القدم ينكرون على ويشهدون بكفرى ويسعون إلى قتلى . وهم بذلك معذورون ، وبكل ما يفعلون بى مأجورون .

والحكاية تصور عقيدة الحلاج فى أنه بتحملة الآلام الثقالة أصبح - كما يزعم - فى مرتبة عليا ، بحيث ارتسمت الصورة الإلهية فيه ، إذ ظهر فيه اللاهوت ، وأصبح لا يفرق بين نفسه وربه . فقد امتزج الحدث أو الحدائة فيه بالقدم ، بل إنه لم تبق فيه صفة إلا صفة القدم ، بخلاف من حوله من الناس ، فهم جميعاً يستشعرون الحدث ، أو قل كلهم حادثون ، وهو وحده الذى أصبح يستشعر القدم ، فلماذا ينكرون عليه التكلم عن القدم . مع أنه هو - كما يزعم - والقديم شىء واحد ! . وله عبارات تدل على أنه كان فى بعض أحواله يؤمن بتمزيه الذات العلية عن التشبيه بالمخلوقات وفى أخباره عن أحمد بن سعيد الإسبىنجانى قال (١) :

سمعت الحلاج يقول : ألزم (الله) الكلّ الحدث لأن القدم له . والذى بالجسم ظهوره العرضُ يلزمه . والذى بالإرادة اجتماعه قواها تمسكه . والذى يؤلفه وقت يفرقه وقت . والذى يقيمه غيره الضرورة تمسه . والذى الوهم يُظفر به التصويرُ يرتقى إليه . ومن آواه محل أدركه أين . ومن كان له جنس طالبه كَيْفٌ . إنه تعالى لا يظلمه فتوقٌ ولا يقلبه (بجمله) تحسنت . ولا يقابله حدٌ ولا يزاحمه عندٌ ، ولا يأخذه خلسفٌ ولا يجدّه أمامٌ . ولا يظهره قسبلٌ ولا يُفئته بَعْدٌ . ولا يوجدّه كان ، ولا يفقده ليس (عدم) . وصنمه لا صفة له . وفعله لا علته له . وكونه لا أمد له . تنزه عن أحوال خلقه . ليس له من خلقه مزاج ، ولا فى فعله علاج ، باينهم بقدمه كما باينوه بحدثهم .

ويستمر الحلاج فى مثل هذا التنزيه لله ، فهو لا يشبه الكائنات فى شىء ولا يشبهونه فى شىء ، تفرّد بذاته وصفاته عن ذواتهم وصفاتهم فهم حادثون وهو قديم ، لا يلزمه شىء ولا يمسكه شىء ، كلٌ واحد لا أجزاء له ، لا تمسه ضرورة ولا يلحقه وهم ، ولا يؤويه مكان ولا تحتويه صفة ، لا شىء فوقه ولا آخر تحته ، لا يجدّه حدٌ ولا جهة من الجهات ، موجود قبل كل وجود ، ولا يلحقه عدم

ولا فناء ، ولا يصفه وصف لا يُسأل عما يفعل ، أزليّ أبديّ ، ليس كمثل شيء ،  
قديم والحلق جميعاً حادثون . ومرّبّ بنا أنه ربما كان أول صوفي دَعَا للانفصام بين  
الحقيقة (التصوف) والشريعة ، وفي أخباره أنه . قال في رسالة له أرسل بها إلى  
بعض تلامذته (١) :

« اعلم أن المرء قائم على بساط الشريعة ما لم يصل إلى مواقف التوحيد ،  
فإذا وصل إليها سقطت من عينه الشريعة واشتغل باللوائح الطالعة من معدن الصدق ،  
فإذا ترادفت عليه اللوائح وتتابعت عليه الطوالع صار التوحيد عنده زندقة والشريعة  
عنده هوساً ، فبقي بلاعين ولا أثر . إن استعمل الشريعة استعمالها رسماً . وإن  
نطق بالتوحيد نطق به غلبة وقهراً » .

وواضح أنه يجعل الشريعة للناس العاديين ، أما أهل الحقيقة من أمثاله فإنهم يُسقطون  
الشريعة ويسقطون معها الفروض الدينية ! فلا صلاة ولا صوم ولا حج ولا زكاة ،  
بل إن المتصوف إذا ظل راقياً في مراقى الحقيقة العليا ، سقطت عنده لا الشريعة وحدها ،  
بل كل شيء حتى التوحيد ! . ولعل في الفقرة الأخيرة من كلامه ما يشير إلى لون رابع  
من ألوان النثر الصوفي ، هو تصوير الصوفية لاعتقاداتهم في مصنفات خاصة ،  
على نحو ما يلقانا في كتاب الطواسين له ، ويحسن أن نعرض منه قطعة أو فقرة  
تصور كتابته الصوفية ، ولتكن القطعة التي كتبها عن شخصية الرسول صلى الله عليه  
وسلم في مستهل الفصل الأول من كتابه ، وهي تجرى على هذا النمط (٢) :

« طس سراج من نور الغيب بدّأ وعاد . وجاوز السراج وساد ، قمر تجلّى  
من بين الأقمار ، برّجُه في فلك الأسرار ، سمّاه الحق أمياً لجمع همته ،  
وحترمياً لعظم نعمته ، ومكياً لتمكينه عند قربه ، شرح صدره ، ورفع قدره ،  
وأوجب أمره ، فأظهر بدره . طلع بدره من غمامة اليامة ، وأشرقت شمسه من  
ناحية تهامة . . . (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً  
منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) . أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره  
ظهرت ، همته سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم ، لأنه كان  
قبل الأمم . . . وهو سيد البرية الذي اسمه أحمد ، ونعتُه أوحد ، كان مشهوراً

(١) أخبار الحلاج ص ٧٣ .

(٢) الطواسين ص ٩ - ١٤ .

قبل الحوادث والكوائن والأكوان ولم يزل ، كان مذكوراً قبل القبل وبعد البعد ، هو الذى جتلاً الصِّدْأ عن الصدر المغلول ، وهو الذى أتى بكلام قديم لا مُحَدَّث ولا مقول ولا مفعول . . . فوقه غَمَامَةٌ برقت ، وتحتَه برقة لمعت وأشرفت وأمطرت وأثمرت . العلوم كلها قطرة من بحره ، والحكم كلها غَرْفَةٌ من نهره ، الأزمان كلها ساعة من دهره ، هو الأول فى الوصلة ، والآخر فى النبوة ، والباطن بالحقيقة ، والظاهر بالمعرفة .»

«واطس» تبتدئُ بهاسور معرفة فى القرآن الكريم ، وقد اختار جمعها اسماً لكتابه! وهو يشيد بالرسول عليه السلام متمثلاً فيه فكرة اللاهوت ، بل إنه ليجعل نوره الخمدى أول شيء خلقه الله . وقد ظل يظهر فى نبوات الأنبياء منذ آدم ، وليس ذلك فحسب ، فهو مبدأ الوجود وروحه ، وهو منبع العلم والعرفان والحكمة ، أو هو الأول السابق فى الوجود لكل وجود ، وهو الآخر فى النبوات وبين الأنبياء . وكأنه الحقيقة الإلهية السارية فى الوجود كله ، فنها يستمد الكون وجوده وكل نبي نوره . بل إنه هو المشاهد فى كل نور . وذكر أن الرسول عليه السلام أتى بكلام قديم ، وبذلك خالف المعتزلة مخالفة صريحة فى قولهم بأن القرآن كلام الله ليس قديماً بل هو مخلوق وحادث .

وواضح أن الحلاج كان يستخدم فى كتابه الطواسين السجع ، وبذلك لاعم بين أسلوبه وأسلوب الكتابة فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع فإن السجع أخذ يعم فى الكتابات الأدبية . وربما كان فى اختياره لهذا الأسلوب ما يدل على أنه أراد أن يرتفع بكتابه الطواسين عن الطبقة العامة إلى الطبقة الخاصة محاولاً أن يؤثر فيها بما حشده فيه من السجع تارة ومن الشعر تارة ثانية ، وكأنه كان يعرف قبل غيره أن العامة لن تفهم أفكاره الصوفية المعقدة . فقدمها إلى الطبقة الخاصة مُودِعاً فيها من السجع والشعر ما يتنسَّحُ للرمز والتأويل .

## المنظرات

مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول ما يصور اندلاع المناظرات بين المعتزلة وطوائف المتكلمين وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل اندلاعاً هيباً لظهور كثير من كبار المناظرين في شئون الدين والعقل كما هيا لبسط المعاني ومدّها بلخائر جديدة من توليد الأفكار وتشعيبها والتعدي في مساربها الخفية، وقد أسلفنا أن مجد المعتزلة سقط في هذا العصر منذ وقف المتوكل قولهم القائل بخلق القرآن وفسّح لآراء أهل السنة، وقد غضب غضباً شديداً على ممثل المعتزلة في بلاط المعتصم والوائق من قبله، وتقصد أحمد بن أبي دوّاد .

لم يعد للمعتزلة مجدهم القديم، ولكنهم لم يترجعوا عن الوظيفة التي ندبوا لها أنفسهم إزاء أصحاب النحل والملل، فكانوا بالمرصاد للملاحدة، ومرّ بنا كتاب الانتصار للخياط المعتزلي الذي ردّ ردّاً مفحماً على ابن الراوندي الملحد. وظل الجدل عنيفاً بين المعتزلة وغيرهم من المتكلمين، على نحو ما يصور لنا ذلك الجاحظ في كتاباته وخاصة في كتابه «فضيلة المعتزلة» وتلاه في رئاسة المعتزلة بالبصرة أبو يعقوب الشّحام، وكان يعاصره في بغداد جعفر بن حرب المعتزلي، وحكى الخياط مناظرة بينه وبين السّكّاك الرافضي في علم الله جلّ جلاله وحدوثه وقدمه وإثباته ونفيه<sup>(١)</sup>، وفي موضع آخر يحكى المناظرات التي انعقدت بين هذا الرافضي وأبي جعفر الإسكافي المعتزلي قائلاً: «وهذه مجالسة مع أبي جعفر الإسكافي معروفة يعلم قارئها والمناظر فيهما مقدار الرجلين وفرق ما بين المذهبيين<sup>(٢)</sup>». وكانت تدور في مجالس أبي علي الجبّائي المتوفى سنة ٣٠٣ مناظرات كثيرة أهمها ما دار بينه وبين ربيبه وتلميذه أبي الحسن الأشعري المتوفى سنة ٣٢٤، وكانت ترجح كفة الأشعري غالباً. من ذلك مناظرتيها في الصلاح والأصلح إذ كانت المعتزلة ومعهم أبو علي الجبّائي يوجبون على الله فعل الأصلح، وقد سأله الأشعري في أثناء احتدام

(١) الانتصار للخياط ص ١١٠ .

(٢) الانتصار ص ١٤٢ .

المناظرة عن عاقبة ثلاثة : مؤمن وكافر وصبي ماتوا جميعاً ، فأجابه بأن المؤمن من أهل الدرجات والكافر من أهل الهلكات والصبي من أهل النجاة . وأخذ الأشعري يراجعهُ إلى أن قال له : فلو قال الكافر : يا رب علمتَ حال الصبي وأنه لو بقي لعصَى وعوقب فراعيتَ مصلحته ، وعلمتَ حالي مثله ، فهلاًّ راعيتَ مصلحتي . حينئذ انقطع الجبّائي وألزمه الأشعري أن الله يخصُّ من شاء برحمته ومن شاء بعقابه وأن أفعاله غير معلّمة<sup>(١)</sup> .

وكان الخلاف واسعاً بين بعض أصحاب المذاهب الفقهية ، فكثرت المناظرات بينهم ، وفي طبقات الشافعية للسبكي أطراف من هذه المناظرات ، وما يذكره أن أبا العباس بن سريج القاضي رئيس الشافعية ببغداد كان مشغولاً بمناظرة داود الظاهري ، حتى إذا توفي داود مضى يناظر ابنه محمداً في المذهب الظاهري ، يقول : ولهما المناظرات المشهورة والمجالس المروية ، ويحكى أن ابن داود قال لابن سريج يوماً : أبلغني ربي ، فقال له : أبلغتك نهر دجلة ، وقال له يوماً : أمهلني ساعة ، فقال له : أمهلتك من الساعة إلى قيام الساعة<sup>(٢)</sup> . وبالمثل كان اللغويون والنحاة يتناظرون ، وشائعةٌ معروفةٌ مناظرات المبرد مع ثعلب بنار محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد في مسائل اللغة والنحو<sup>(٣)</sup> . وكان تلاميذ ثعلب يتعرضون أحياناً للمبرد في محاضراته بالمسجد ، فما يزال يناظرهم ويجادلهم ويجاورهم حتى ينزعهم من أستاذهم ثعلب ويلحقهم بتلاميذته وحلقته<sup>(٤)</sup> .

ومن المناظرات التي اشتهرت بأخرة من العصر مناظرة السيرافي ومثي بن يونس المترجم المتفلسف في مجلس الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات لسنة ٣٢٠ وكان السيرافي من علماء النحو النابيين ، وله كتاب كبير في شرح كتاب سيديويه . وكان موضوع المناظرة النحو والمنطق أيهما أكثر نفعاً في معرفة صحيح الكلام من سقيمهِ . وقد روى المناظرة أبو حيان التوحيدي ونقلها عنه ياقوت في معجمه<sup>(٥)</sup> ، والطريف أنه يذكر في فاتحتها من كان في المجلس من العلماء والفضلاء ، ويذكر

١ / ١٤١ ومعجم الأدباء ٥ / ١٣٧ .

(٤) معجم الأدباء ١٩ / ١١٧ .

(٥) معجم الأدباء ٨ / ١٩٠ .

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٣ / ٣٥٦

وما بعدها .

(٢) السبكي ٣ / ٢٣ .

(٣) تاريخ بغداد ٥ / ٢٠٨ وإنباه الرواة

أنهم كتبوا المناظرة في أواح وبمحابر كانت معهم ، مما يعطى صورة عن مجلس المناظرات حينئذ . وتبدأ المناظرة بسؤال السيرافي لمتى بن يونس عن المنطق ما يعنى به ، حتى يكون كلامه معه في قبول صوابه وردد خطئه على سستن مرضى وطريقة معروفة ، ويجيبه متى : أعنى به أنه آله من الآلات يُعرفُ بها صحيح الكلام من سقيمه وفساد المعنى من صالحه كالميزان فإنه يُعرفُ به الرجحان من النقصان والشائل من الجانح . ويقول السيرافي :

« أخطأت لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالعقل . هببكَ عرفتَ الرجح من الناقص من طريق الوزن من لك بمعرفة الموزون أهو حديد أو ذهب أو شبه ( نحاس ) أو رصاص ؟ وأراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدّها ، فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك ، وفي تحقيقه كان اجتهادك ، إلا نفعاً يسيراً من وجه واحد ، وبقيت عليك وجوه ، فأنت كما قال الأول : « حفظت شيئاً وضاعت منك أشياء » وبعد فقد ذهب عليك شيء ههنا ، ليس كل ما في الدنيا يُوزنُ ، بل فيها ما يوزن ، وفيها ما يُسكال ، وفيها ما يُذرع ( يقاس بالذراع ) وفيها ما يُمسح ، وفيها ما يُحزّر . وهذا وإن كان هكذا في الأجسام المرئية فإنه أيضاً على ذلك في المعقولات المقروءة ، والإحساس ظلال العقول ، وهى تحكيها بالتبديد والتقريب مع الشبه المحفوظ والمماثلة الظاهرة . ودع هذا إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها من أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه حكماً لهم وعليهم وقاضياً بينهم ما شهد له قبلوه وما أنكروه رفضوه . قال متى : إنما لزم ذلك لأن المنطق يبيحث عن الأغراض المعقولة والمعاني المُدرّكة ويتصفّح الحواطر السانحة والسوانح الهاجسة والناس في المعقولات سواء ، ألا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية عند جميع الأمم ؟ وكذلك ما أشبهه » . قال السيرافي :

« لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتبانية إلى هذه المرتبة البينة في أربعة وأربعة أنهما ثمانية زال الاختلاف

وحضر الاتفاق ، ولكن ليس الأمر هكذا ، ولقد موهت بهذا المثال ، ولكم عادة في مثل هذا التدويه . ولكن ندع هذا . إذا كانت الأغراض المعقولة والمعاني لا يوصلُ إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف أفليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة ؟ » .

ويناقش السيرافي مَسْتَى في ترجمة المنطق من اليونانية إلى السريانية ثم إلى العربية وأنه ربما حدث حَيْفٌ على المنطق في أثناء هذا الطريق الطويل الذي سلكه إلى الفصحى ، ويقول له : كأنك تقول لا حجة إلا عقول يونان ولا برهان إلا ما وصفوه . ويقول مَسْتَى إنهم أصحاب عناية بالحكمة واولاهم ما نشأت العلوم وأصحاب الصناعات . وهو تعميم أكثر مما ينبغي . وَيَحْتَمِدُ الجدال ، ويسأله السيرافي عن حرف واحد من الحروف التي يهتم بها النحو يدور في كلام العرب وهو حرف الواو ومعانيه المتميزة عند النحاة ، ويقول له استنبطتها من ناحية منطق أرسطاطليس الذي تُدَلِّ به وتباهى بتفخيمه وعرفنا ما أحكامه وكيف مواقعه وهل هو على وجه واحد أو وجوه . وَيُسَبِّهَتُ مَسْتَى ، ويقول : هذا نحو ، والنحو لم أنظر فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطقي إلى النحو ، أما النحوي فاحتاج إلى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى والنحو يبحث عن اللفظ ، فإن مرَّ المنطقي باللفظ فبالعرض وإن عبَّر النحوي بالمعنى فبالعرض ، والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى . وينكر عليه السيرافي قواه ويحاول أن يثبت أن النحو يدور على المعاني ويسأله عن معاني الواو وكيف أنه يجهلها ، وهي حرف واحد ، فما باله لو سأله عن معاني جميع الحروف ، ويصور له معانيها وأن المنطق الذي يُزْهِى به مَسْتَى لا يستطيع بيانها . ثم يعرض عليه قولهم : « زيد أفضل الإخوة » ، ويسأله أيحوز أن يقال : زيد أفضل إخوته ، ولا يستطيع مَسْتَى التفرقة بين العبارتين فيقول له إن العبارة الثانية لا تصح في الكلام لأن إخوة زيد هم غير زيد ، وزيداً خارج عن جملتهم ، ويُقْسِمُه في متشابهات نحوية وعبارات موهمة لا يحلُّها سوى النحو . ويعرض عليه طائفة من مصطلحات المناطقة والفلاسفة ، ويقول له إن كل ذلك لا حاجة للعقل السليم به . وفي الحق أن لَسَّنَ السيرافي وفصاحته وقدرته على التعبير كل ذلك هو الذي أتاح له الظفر بخصمه في تلك المناظرة الطويلة التي امتدت إلى أكثر من عشرين صحيفة ،

وقد أردنا بعرضها أن نصور استخدام المناظرات في العصر وأنها تناولت كل جوانب المعرفة .

وحقّ الكتب المؤلفة في العصر نجد عليها مسحة المناظرة والجدل واضحة، حتى على عنواناتها ، إذ كثيراً ما تُعَسَّنُون بكلمة الرد أو كلمة النقض ، فالكتاب يؤلّف رداً أو نقضاً لكتاب آخر ، وكأن المناظرات لم تقف عند المجالس والمحاضرات في المساجد ، بل امتدت إلى الكتب والمصنفات ، ويوضح ذلك الجاحظ في بعض كتبه ورسائله . فتمدُّ بُنيت في جمهورها على فكرة المناظرات إذ نرى « الحيوان » يُبَسِّئِي على مناظرة امتدت إلى أكثر من مجلد بين معبد والنظام في الكلب والديك أيهما أفضل ؟ . وله كتاب افتخار الشتاء والصيف وهو مناظرة واضحة بين الفصلين ، وكتاب الفخر ما بين عبد شمس ومخزوم ، وهو مناظرة بين العشيرتين القرشيتين ، وكتاب فخر القحطانية والعدنانية وهو مناظرة بين اليمينية والمضرية . وقد يمدح الشيء في رسالة ثم يذمه في أخرى ، وكأنه يكتب مناظرة في رسالتين مثل رسالته في مدح النبيذ ورسالته في ذم النبيذ ومثل رسالته في مدح الكتاب ورسالته في ذم الكتاب ، ومثل رسالته في مدح الوراق ( بائع الكتب ) ورسالته في ذم الوراق . وله كتب مختلفة يجعل عنوانها كلمة الرد مثل كتاب الرد على المشبهة وكتاب الرد على النصارى وكتاب الرد على اليهود ، وله كتاب العثمانية وكتاب الرد على العثمانية ، وله كتاب نقض الطب . ومن رسائله التي أدارها على المناظرة رسالته «فخر السودان على البيضان» ورسالته «مفاخرة الجوارى والغلمان» . وقد لا توضع فكرة المناظرة أو الرد والنقض أو المدح والذم على الكتاب والرسالة ، فإذا قرأنا فيهما وجدناهما يأخذان شكل مناظرة كبيرة مثل كتاب التربيعة والتدوير ، نراه فيه ينتصر للقصر تارة وللطول تارة ثانية ، وتارة ثالثة للتوسط بين الطرفين المتناقضين .

وكأنما كانت المناظرات والمحاورات لغة العصر الفكرية ، فدائماً مناظرات ومجادلات في كل مكان وفي كل موضوع علمي أو فلسفي أو أدبي ، والمناظر ينتصر تارة ، وتارة ينهزم في تلك الساحة الفكرية الكبيرة : بغداد ، وهم لا يكلون ولا يملون ولا يتوقفون فدائماً جدل وحوار وتشعيب للدقائق المعاني وغوص على خفيّاتها وكوامنها

المستورة ، ولا يمنع الانهزام يوماً صاحبه من التجمع للمناظرة والتحفز للحوار في يوم ثان أو اثناء ثان ، بل قد ينهزم المناظر وينتصر في المجلس الواحد مراراً ، وفي هذا الحوار الواسع ومعاركه الدائرة دون توقف يقول ابن الرومي مشيراً إلى المتناظرين وجداهم العنيف :

لنوى الجِدال إذا غَدُوا لجدالهم حُججٌ تَصِلُ عن الهدى وتجوُّرُ  
وهمُ كَأَنِّيهِ الزجاج تصادمتُ فهوتُ وكلُّ كاسِرٍ مكسورُ

ويبدو ابن الرومي نفسه في شعره مناظراً كبيراً ، إذ تُطَبِّعُ جوانب من شعره — كما أسلفنا — بطوابع الجدال وما يُطَوِّى فيه من قدرة وبراعة على نَسْجِ الأدلة تارة ونقضها تارة أخرى . ومرَّ بنا ذمه للورد ونقضه لمحاسنه وقلبيها مساوي ذميمة في قصيدته «الرجس والورد» وهي مناظرة شعرية طريفة .

وتسرى هذه الروح في قصصه وحكايات وأخبار جمعت ونُسِّقت في الكتاب المسمى بكتاب المحاسن والأضداد المنسوب خطأ إلى الجاحظ . لأنه يُفْتَسَحُ بكلمة : « قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » وتتوالى نقول عنه في فضائل الكتب ووصف فوائدها ، نجدناها مبثوثة في كتاب الحيوان . ولعل هذا الاستهلال هو الذي جعل القدماء يظنون أن الكتاب من تأليف الجاحظ ، وأيضاً فإنه ينقل عنه في بعض فصوله نقولاً مختلفة . ولكن من يعرف أسلوب الجاحظ المطرد في كتبه يعرف تَوّاً أن الكتاب ليس له ، والطريف أن صاحبه ذكر في مستهله عن الجاحظ قوله في بعض رسائله : « إني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والحراج والأحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه إلى نفسي فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاعته ، وأكثر ما يكون هذا منهم إذا كان الكتاب مؤلفاً لملك معه المقدرة على التقديم والتأخير والخطأ والرفع والترهيب والترغيب فإنهم يهتاجون عند ذلك احتياج الإبل المغتلمة . . . وهم قد ذموه وثلبوه لما رأوه منسوباً إلى وموسوماً بي . وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل وسلّم صاحب بيت الحكمة ويحيى بن

خالد والعنّابى ومن أشبه هؤلاء من مؤلفى الكتب فيأتينى أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذى كان أحكمّ من هذا الكتاب لاستنساخه وقراءته على ، ويكتبونه بخطوطهم ويصيرونه إماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدّبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه فى كتبهم وخطاباتهم ويروونه عنى لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فثبت لهم به رياسة . ويأتى بهم قوم فيه لأنه لم يترجم باسمى ولم ينسب إلى تأليفى . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن المؤلف رأى أن يحاكي الجاحظ فى إنكاره لاسمه أحياناً على بعض آثاره . فنسبه إليه . ليرى رأى الناس فيه وحكمهم عليه . وربما كان هو نفس مؤلف كتاب المحاسن والمساوى الذى سنعرض له عما قليل . وما يشهد بأن الكتاب ليس للجاحظ وإنما هو لمؤلف تال لعصره أن نجد فيه نقولا عن عبد الله بن المعتز<sup>(١)</sup> ، وكان فى الثامنة من عمره حين توفى الجاحظ .

والكتاب مجموعة كبيرة من المناظرات فى الأخلاق والشئام ، فكل خلق أو كل شىء تُعرضُ محاسنه ثم تعرضُ معايبه ، وتصوّرُ المعايير والمحسنين فى أخبار وأقاصيص وحكايات ، تلتقى فيها الثقافات المعروفة حينئذ وما كان يتسرب منها إلى كتب السمر . وفى مقدمتها الثقافة الإسلامية ، وهى تتضح فى الاقتباس أحياناً من الذكر الحكيم<sup>(٢)</sup> والاستشهاد الدائم بالأحاديث النبوية<sup>(٣)</sup> . وتتسع الثقافة الدينية لتجلب بعض أقوال الزهاد أو بعض قصص الأنبياء أو بعض وصايا من التوراة من مثل : « اشكر من أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك ، فإنه لا زوال للنعم إذا شكرت ولا إقامة لها إذا كُفرت . والشكر زيادة فى النعم وأمان من الغير »<sup>(٤)</sup> . وبجانب ذلك تلقانا عناصر كثيرة من الثقافة العربية فى مقدمتها الأمثال<sup>(٥)</sup> ، والأشعار وهى أكثر من أن ندرّ عليها فى موضع معين من الكتاب . وتكثر أخبار الجاهليين وأقاصيصهم المصوّرة لمكارم أخلاقهم أو مذامها . وبالمثل أخبار حكمّام العرب وحكاياتهم على توالى الحقب من إسلاميين وعباسيين وخاصة حكمّام بنى أمية والرشد والمأمون ، وتكثر أخبار الأعراب وأقاصيصهم ويلمع فيها اسم الأصمعى .

(١) المحاسن والأضداد ( طبع دار مكتبة

العرفان ببيرت ) ص ١٣٨ ، ١٦٩ .

(٢) المحاسن والأضداد ص ٣٩ ، ٤٢ .

(٣) انظر مثلا ص ٣٢ .

(٤) المحاسن والأضداد ص ٣١ .

(٥) انظر مثلا ص ١٠٤ ، ١٧٥ .

وتلقانا حكم وأقاصيص منقولة عن بعض كتب الهند من مثل : « ليس لكذب مروعة ولا لضجور رياسة ولا للملوك وفاء ولا لبخيل صديق »<sup>(١)</sup> ، وبالمثل تلقانا أقاصيص وأخبار وحكم منقولة عن اليونان من مثل : « كلّم رجل سقراط عند قتله بكلام أطاله ، فقال أنساني أول كلامك طول عهده وفارق آخره فهمى لتفاوته ، ولما قدّم بكت امرأته فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : تفتتل ظلماً قال : وكنت تحبين أن أقتتل مظلوماً أو أقتل ظالماً »<sup>(٢)</sup> . وللملوك الفرس ووزرائهم شطر كبير من الأقاصيص والأخبار . ونختار باباً من أبواب المحاسن نسوق منه ما يصور سيول هذه الثمافات ، وهو باب محاسن السخاء ، وبما جاء فيه<sup>(٣)</sup> :

« روى عن نافع قال : لقي يحيى بن زكريا عليه السلام إبليس لعنه الله فقال له : أخبرني بأحب الناس إليك وأبغضهم ، قال : أحبهم إلى كل مؤمن بخيل وأبغضهم إلى كل منافق سخّي قال : ولم ذاك ؟ قال إبليس : لأن السخاء خلق الله الأعظم فأخشى أن يطلع عليه في بعض سخائه فيغفر له . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : السخي قريب من الناس بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار ، والجاهل السخي أحب إلى الله عز وجل من عابد بخيل ، وأدوأ الدواء البخل . وقال صلى الله عليه وسلم : ما أشرفت شمس إلا ومعها ملكان يناديان يُسْمَعَانِ الخلائق غير الجن والإنس وهما الثقلان : اللهم عجل لمنفق خلفاً ولمسك تلفاً ، وملكان يناديان : أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى . وعن الشعبي قال : قالت أم البنين ابنة عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز وزوجة الوليد بن عبد الملك : لو كان البخل قميصاً ما لبسته أو طريقاً ما سلكتها ، وكانت تعتق في كل يوم رقبة (عبداً) ونحمل على فرس مجاهداً في سبيل الله . . . وقال بهرام جور : من أحب أن يعرف فضل الجود على سائر الأشياء فليُنظر إلى ماجاد الله به على الخلق من المواهب الحليّة والرغائب النفيسة . . . وقال المويدان لأبرويز (ملك فارس) : أكنتم تَمَسُّونَ أُنتم وأباؤكم بالمعروف وترصدون عليه المكافأة؟ قال : ولانستحسن ذلك لعبيدنا ، فكيف

(٣) المحاسن والأضداد ص ٦٢ وما بعدها .

(١) المحاسن والأضداد ص ٣٨ .

(٢) المحاسن والأضداد ص ٢٢ .

نرى ذلك وفي كتاب ديننا ( كتاب زرادشت : الأفستا ) من فعل معروفًا خفيًا وأظهره ليتطوّل به على المنعم عليه فقد نبذ الدين وراء ظهره واستوجب ألا نعدّه من الأبرار ولا نذكره في الأتقياء والصالحين . وسئل الإسكندر : ما أكبر ما شيّدت به ملكك ؟ قال : ابتدأرى إلى اصطناع الرجال والإحسان إليهم . وكتب أرسططاليس في رسالته إلى الإسكندر : اعلم أن الأيام تأتي على كل شيء فتخلقُه ( فتبليه ) وتخلق آثاره وتميت الأفعال إلا ما رسخ في قلوب الناس ، فأودع قلوبهم محبةً بأثرِكَ تبتقى بها حسُنَ ذكرك وكريم فعالك وشريف آثارك . ولما قدّم بزرجمهر ( وزير فارسي ) إلى القتل قيل له : إنك في آخر وقت من أوقات الدنيا وأول وقت من أوقات الآخرة ، فتكلم بكلام تُدكرُ به ، فقال : أي شيء أقول ، الكلام كثير ولكن إن أمكنك أن تكون حديثًا حسَنًا فافعل . وتنازع رجلان أحدهما من أبناء العجم والآخر أعرابي في الضيافة فقال الأعرابي : نحن أقرى للضيف ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأن أحدنا ربما لا يملك إلا بعيرًا فإذا حمل به ضيف نحره له ، فقال له الأعجمي : فنحن أحسن مذهبًا في القرى ( الضيافة ) منكم ، قال : وما ذاك ، قال : نحن نسمى الضيف : مِهْمان ، ومعناه أنه أكبر مَنْ في المنزل وأملكنا له . وقال المأمون : الجود بذل الموجود والبخل سوء الظن بالمعبود . وشكا رجل إلى إياس بن معاوية ( قاضي البصرة المشهور في العصر الأموي ) كثرة ما يهب ويصل وينفق ، فقال : إن النفقة داعية إلى الرزق ، وكان جالسًا بين بايين فقال للرجل : أغلق هذا الباب ، فأغلقه ، فقال : هل تدخل الريح البيت قال : لا ، قال : فافتحه ، ففتحه ، فجعلت الريح تخترق البيت ، فقال : هكذا الرزق أغلقت البيت فلم تدخل الريح ، فكذلك إذا أمسكت لم يأتك الرزق . ونزل على حاتم ضيف ولم يحضره القرى فنحر ناقة الضيف وعشاه وغداه ، وقال له : إنك أقرضتني ناقتك فاحتكم عليّ ، قال الرجل : راحلتين قال حاتم : لك عشرون أرضيت ؟ قال : نعم وفوق الرضا . . . وقيل في المثل هو أجود من كعب بن مامة الإيادي ، وبلغ من جوده أنه خرج في ركب فيهم رجل من بني النَمير في شهر قَيْسَظ . فضلوا وتصافوا ( تقاسموا بالخصم ) ماءهم ، فجعل النمرى يشرب نصيبه ويظهر أنه عطشان ، فكان كعب إذا أصاب نصيبه قال للساق : آثر أخاك النَميرى حتى أضرب به العطش فلما رأى ذلك استحث راحلته وبادر حتى وصل

إلى ورْد ماء ، وقيل له : ردُّ كعب ، إنك وارد ، ولكن العطش غلبه فات . . .  
ومن قول أبي تمام :

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتق الله سائِلهُ »

وإنما سقنا ذلك كله لندل على المزيج الثقافي الذي يتكوّن منه كتاب المحاسن والأضداد ، وهو مزيج به عناصر قصصية عن الأنبياء وعناصر إسلامية من الحديث النبوي وعناصر عربية من أخبار العرب رجالا ونساء ، وعناصر فارسية من أخبار الفرس وحكاياتهم وعناصر يونانية من أخبار الإسكندر المقدوني وكلام أرسططاليس . وبين السطور نحسُّ شعوبية المؤلف حين يُعْملُ ضيافة الفرس وكرمهم على ضيافة العرب وما عُرِف عنهم من خصلة الكرم والجود . ولم يكفه ذلك فقد جعل حاتمًا يذبح ناقة ضيفه ليقدم له الغداء والعشاء ، وإن عاد يقول إنه أعطاه بدلا منها عشرين ناقة ، فكأنه يريد أن يستر شعوبيته . ولعل هذا الجانب في الكتاب هو الذي جعل المؤلف لا يُظهر اسمه ، حتى لا يؤخذ به . وفي هذه الفقرة الطويلة ما يصور سيول الأخبار وما قد يكون فيها من قصص . ودائمًا نلتقي في الكتاب بطرائف من الحكم والأخبار ، على نحو ما جاء في محاسن حفظ اللسان إذ قيل : إنه تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات كأنما رُميت عن قوس واحد ، قال كسرى : أنا على ردِّ ما لم أقل أقدر مني على ردِّ ما قلت . وقال ملك الهند : إذا تكلمت بكلمة ملككتني وإن كنت أملكها . وقال قيصر : لا أندم على ما لم أقل وقد ندمت على ما قلت . وقال ملك الصين : عاقبة ما قد جرى به القول أشد من الندم على ترك القول<sup>(١)</sup> . وفي الكتاب قصص كثير متنوع في موضوعاته وفي مصادره وموارده ، ويكثر فيه القصص عن المرأة العربية ، وكذلك عن المرأة الفارسية ، فما جاء فيه عن المرأة العربية قصة رواها العتبي على هذا النمط<sup>(٢)</sup> :

« قال العتبي : كنت كثير التزوج فررتُ بامرأة فأعجبني ، فأرسلتُ إليها ألك زوج ؟ قالت : لا فصرت إليها ، فوصفت لها نفسي ، وعرفتني موضعى فقالت : حسْبُك قد عرفناك ، فقلت لها : زوجيني نفسك ، قالت نعم :

(٢) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ .

(١) المحاسن والأضداد ص ٢١ .

ولكن ههنا شيء هل تحتمله؟ قلت: وما هو؟ قالت: بياض في منفرق رأسي.  
قال: فانصرفت، فصاحت بي ارجع، فرجعت إليها، فأسفرت عن رأسها:  
فنظرت إلى وجه حسن وشعر أسود، فقالت: إنا كرهنا منك، عافاك الله،  
ما كرهت منا، وأنشدت:

أرى شَيْبَ الرجال من الغَوَايِ بموضع شَيْبِهِنَّ من الرجالِ ۝

وهي قصة طريفة، وفي الكتاب قصص عن النساء ووفائهن وكيدهن، تكثر  
فيها عناصر التشويق، مما يجعلها قصصاً بديعة من ذلك قصة أضيفت إلى شيرين  
الملكة الفارسية المشهورة ملخصها أن زوجها كسرى أبرويز أتاه صياد بسمكة كبيرة<sup>(١)</sup>  
فأعجب به وأمر له بأربعة آلاف درهم، فقالت له شيرين: أمرت لصياد بأربعة  
آلاف درهم فإن أمرت بمثلها لرجل من وجوه حاشيتك قال: إنما أمر لي بمثل ما أمر  
به للصياد. فقال لها كيف أصنع وقد أمرت له بما أمرت؟ قالت إذا أتاك فقل له:  
أخبرني عن السمكة أذكر هي أم أنثى؟ فإن قال: أنثى فقل: لا تقع عيني  
عليك حتى تأتيني بالذكر، وإن قال: ذكر، فقل له: لا تقع عيني عليك  
حتى تأتيني بالأنثى، فلما غدا الصياد على الملك قال له: أخبرني عن السمكة  
أذكر هي أم أنثى؟ قال: بل أنثى قال: فتأتني بذكرها، قال: عمر الله الملك  
إنها كانت بكرًا لم تتزوج بعد، فقال له الملك: حسنًا، حسنًا، وأمر له بأربعة  
آلاف درهم، وأمر أن يكتب في ديوان الحكمة: إن الغدر ومطوعة النساء  
يورثان العُرْم. وبعض قصص النساء بها غير قليل من الفحش، وقد تذكر أشياء  
غريزية تنبو عن الأذواق<sup>(٢)</sup> على نحو ما يجري في بعض قصص ألف ليلة وليلة،  
وكانت قد تُرجمت، فربما تأثر المؤلف بها، وربما تأثر المؤلف في ذلك بالشعر  
المفحش الكثير الذي كان موجوداً في العصر. وقد يكون ذلك من أسباب تنكر  
المؤلف وإخفائه لاسمه. ويلقانا قصص ديني عن بعض الزهاد، وقد نلتقي  
بمحكايات صوفية، بل قد نلتقي بما يصور كرامات المتصوفة التي سبق أن  
تحدثنا عنها التي كان ينكرها وشيوخهم الأجلاء، فمن ذلك ما رواه الكتاب،

(٢) انظر مثلاً القصة في ص ١٩٣ و ص ٢١٤.

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٠١.

قال<sup>(١)</sup> : « عن أبي مسلم الخولاني قال : إنه خرج إلى السوق بدرهم يشتري لأهله دقيقاً ، فعرض له سائل ، فأعطاه بعضه ، ثم عرض له سائل آخر فأعطاه الباقي ، فأتى درب النَجَّارين ، فلأُ جِرابه أو مِرْزوده من نشارة الخشب ، لتتفع بها امرأته في إيقاد التَّنُور وأتى منزله ، فألقاه ، وخرج هارباً من زوجته . وأخذته فإذا هو دقيق أبيض حُوَارَى (فاخر) لم تر مثله ، فعجنته وخبزته ، فلما جاء ووجد الخبز سألها : من أين لك هذا الخبز ، قالت له : من الدقيق الذي جئتنا به ! . ويذكر الكتاب كرامة لسفيان الثوري لا تقل غرابة عن الكرامة السابقة . ولا نريد أن نسترسل في نقل هذا القصص الكثير الذي يزخر به كتاب المحاسن والأضداد ، إنما نريد أن نوضح كيف أن هذا القصص يحتوي على عناصر مشوقة كثيرة ، وأنه كان يدخل في الأدب الشعبي العام ، ولذلك يخلو من استعمال السجع والأساليب المنمقة ، والطريف أنه عُرِضَ ليجسّم وجهين متقابلين في كل خُلُقٍ وكل خصلة ، فثلا الصدق له محاسنه ، وهذه المحاسن أفاضلها وله معايه ، وهذه المعايه أفاضلها . وبالمثل كل فضيلة ، فوفاء النساء لمحاسنه أفاضلها ولعايه أفاضلها وتناقضها أشد المناقضة . وبذلك يأخذ عرض هذه الأفاضل وما يتصل بها من الأخبار والأقوال والأشعار شكل مناظرات أدبية لا تعتمد على الجدال والحوار بالدليل ضد الدليل والحجة العقلية ضد الحجة العقلية ، وإنما على الحوار والجدال بالخبر ضد الخبر والشعر ضد الشعر والقصة ضد القصة والحكاية ضد الحكاية .

ويلتقى بهذا الكتاب في موضوعاته وأكثر مادته كتاب المحاسن والمساوي لإبراهيم بن محمد البيهقي ، وقد أغفلت الحديث عنه كتب التراجم ، غير أنه يُفهم مما ذكره عن الخليفة المقتدر في آخر حديثه<sup>(٢)</sup> عن محاسن المسامرة أنه ألف كتابه في زمنه . وهو يستهل كتابه بالحديث عن فضائل الكتب ووصف محاسنها مثل المحاسن والأضداد ، ويمثله أيضاً في النقل كثيراً عن الجاحظ . ثم يفتح طائفة من الفصول لم ترد في الكتاب السالف يتحدث فيها عن محاسن الرسول صلى الله عليه وسلم

مصر وطبعها) ٢ / ٢٣٨ .

(١) المحاسن والأضداد ص ١٤١ .

(٢) انظر المحاسن والمساوي (نشر مكتبة نهضة

وفضائله ومساوى المتنبئين ومحاسن الخلفاء الراشدين ومناقبهم ومساوى من عادى على بن أبى طالب ومحاسن ابنه الحسن والحسين ومساوى قتلة الأخير ومحاسن السابقين إلى الإسلام ومساوى المرتدين ومحاسن كلام الحسن بن على وعبد الله بن العباس وفضائل بنى هاشم ومحاسن الافتخار بالرسول . وكل هذه المقدمات ينفرد بها هذا الكتاب بالقياس إلى كتاب المحاسن والأضداد ، وبمجرد أن نفرغ منها نجد الكتائين يلتحمان ، حتى ليصبح كتاب المحاسن والمساوى كأنه نسخة جديدة لكتاب المحاسن والأضداد ، مما يؤكد أن مؤلفهما واحد ، وكأن البيهقي ألّف الكتاب الأول ، وأقحم فيه ما أقحم من أفكار الشعوبية والفحش فى القصص ، ثم رأى أن يخرجها إخراجاً جديداً وينسبه إلى نفسه ، مُنَحِّياً منه ما يصور شعوبيته وما ينبو عن الأذواق السليمة من القصص الفحش مع وضع المقدمات آتفة الذكر . ويبدو منها أنه كان يُكِنُّ نزعة شيعية ، وإن لم يُبَرِّزها بقوة خوفاً على نفسه من المقتدر وحرصاً عليه . وهو فى هذه النسخة الجديدة للكتاب يذكر ابن المعتز<sup>(١)</sup> على نحو ذكره له فى النسخة القديمة أو بعبارة أخرى فى المحاسن والأضداد .

وطبعي أن تكون مصادر هذا الكتاب هى نفسها مصادر الكتاب الأول المنحول للجاحظ ، لأنه ليس أكثر من نسخة مجدّدة له ، وغاية ما هناك أنه دخله تنقيح وتهذيب كثير ، وإذن فكل ما قلناه عن المزيج الثقافى فى المحاسن والأضداد ينطبق بجذافه على هذا الكتاب ، وفيه بعض آى القرآن والأحاديث النبوية وأقوال بعض الصحابة والزهاد ، وفيه أخبار وأقاصيص منقولة عن الأنبياء وعن عيسى وحواريه ، ومن طريف ما نقله عنه ، قوله<sup>(٢)</sup> :

« إن ابن آدم خلُق فى الدنيا فى أربع منازل ، هو فى ثلاثة منها واثقٌ بالله عزَّ وجلَّ ، وهو فى الرابعة سَيِّئٌ الظن ، يخاف خذلان الله عزَّ وجلَّ إياه ، فأما المنزلة الأولى فإنه خلُق فى بطن أمه خَلِيقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرِّحِمِ وظلمة المشيمة ، يُنزل الله جلَّ وعزَّ عليه رزقه فى جوف ظلمة البطن . فإذا خرج من ظلمة البطن وقع فى اللبن لا يخطو إليه بقدم

(١) راجع المحاسن والمساوى ص ٢٧٦/١ ، (٢) المحاسن والمساوى ١/٥٩ .

ولا ساق ولا يتناوله بيد ولا ينهض بقوة ويُسكّرهُ عليه إكراهًا ، حتى ينبت عليه عظمه ودمه ولحمه . فإذا ارتفع من اللبن وقع في المنزلة الثالثة في الطعام بين أبوين يكتسبان عليه من حلال وحرام ، فإن مات أبواه من غير شيء عطف عليه الناس ، هذا يُطعمه ، وهذا يسقيه ، وهذا يُؤويه . فإذا وقع في المنزلة الرابعة واشتدَّ واستوى وكان رجلا خشى ألا يُرزق ، فيثيب على الناس ، فيخون أماناتهم ، ويسرق أمتعتهم ويكاثروهم على ( يغصبهم ) أموالهم مخافة خذلان الله عزَّ وجلَّ .  
إياه .

والنص موجود في المحاسن والأضداد<sup>(١)</sup> ، ولكن العبارة هنا نُقحت وهُدِّبَت بصور مختلفة ، وكذلك النصوص الأخرى حين نعارض الكتابين فيها بعضهما على بعض نجد دائماً هذا التنقيح ، مما يشهد بأن يداً واحدة هي التي كتبتهما ، وأن أولهما كان أشبه بمسودة واتخذ الثاني شكل نسخة مهذبة منقحة قد صُفِّيت وأُخْلِيت من كل الشوائب اللغوية وغير اللغوية ، ودخلتها إضافات من الأمثال والأحاديث النبوية والأشعار والأخبار والأفاصيص ، كهذه الأقصوصة التي تلقانا في الحديث عن محاسن الولايات ، وهي تضي على هذا النمط<sup>(٢)</sup> :

« دخل محمد بن واضح دار المأمون ، وختلّفه أكثر من خمسمائة راكب ، كلهم راغب إليه وراهب منه ، وهو إذ ذاك يلي عملاً من أعمال السّواد ( الأرض المزروعة ) في العراق . فدعا به المأمون فلما حضر بين يديه قال : يا أمير المؤمنين أعفني من عمل كذا وكذا ، فإنه لا قوة لي عليه ، فقال له المأمون : قد أعفيتك . واستعني من عمل آخر . وهو يظن أنه لا يُعفّيه . فأعفاه ، حتى خرّج من كل عمل في يده في أقل من ساعة ، وهو قائم على قدميه . فخرج وما في يده شيء من عمله . فقال المأمون لسالم الحوائجي : إذا خرج فانظر إلى موكبهِ وأحص من بقي معه - وكان المأمون قد رآه من مستشرف له حين أقبل - فخرج سالم وراء محمد بن واضح وقد استفاض الخبر بعزله عن عمله . فنظر فإذا هو لا يتبعه أحد إلا غلام له بغاشية<sup>(٣)</sup> . فرجع سالم إلى المأمون فأخبره ، فقال : ويلهم

( ٣ ) غاشية : غطاء .

( ١ ) المحاسن والأضداد ص ١٢٨ .

( ٢ ) المحاسن والمساوي ١ / ٢٧٣ .

لو تجملوا له ريثما يرجع إلى بيته كما خرج منه ، ثم تمثل فيهم :  
 وَمَنْ يجعلِ المعروفِ في غيرِ أهلهِ يلاقِ الذي لاقى مجيرُ أمِّ عامرٍ<sup>(١)</sup>  
 ثم قال : صدق رسول الله وكان للصدق أهلا حين قال : لا تنفع الصنعة  
 إلا عند ذى حسَبٍ أو دينٍ .

ويُفِيضُ هذا الكتاب كما نفيض مسودته : « المحاسن والأضداد » بكثير من  
 أحوال العصور العربية السياسية والاقتصادية والحضارية ، وخاصة العصر العباسي ،  
 ونرى البيهقي يفتح فيه — كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضوع — فصلا طويلا عن  
 أصناف<sup>(٢)</sup> المكدين وأفعالهم وهو فيه ينقل عن الجاحظ وما كتبه عنهم في مصنفة  
 البخلاء ، وقد عرض فيه حيلهم وتجعروهم في البلدان ونواديرهم ، فمن ذلك<sup>(٣)</sup> :

« أنه أتى سائل داراً يسأل منها ، فأشرفت عليه امرأة من غرفة ، فقال لها :  
 يا أمة الله بالله أن تصدقني على بشيء ، قالت : أي شيء تريد؟ قال : درهمًا ،  
 قالت : ليس عندي ، قال : فدانقاً (جزءاً من درهم) ، قالت : ليس عندي ،  
 قال : ففلساً (جزءاً من دانق) ، قالت : ليس عندي ، قال : فكسوة ،  
 قالت : ليس عندي ، قال : فكفناً من دقيق ، قالت : ليس عندي ، قال :  
 فزيتاً . . . حتى عدَّ كل شيء يكون في البيوت ، وهي تقول ليس عندي ، فقال  
 لها : فما يجلسك عندك ، مرسى ، أسألي معي . »

وواضح أننا لا نعثر في المادة الأدبية التي يحتويها هذا الكتاب وسالفه على شيء  
 من السجع أو التكلف لألوان البديع أو لأى زخرف أو تنميق ، فهى مادة سهلة ،  
 ليس فيها أى حليات لفظية ولا غير لفظية ، وليس فيها أى صعوبات لغوية ،  
 وهى لذلك تُعدُّ مادة شعبية . أو قل إن الكتابين مصنفان كبيران من الأدب  
 الشعبي فى العصر ، وضعهما أديب ممتاز فى شكل مناظرات ومحاورات ، حتى  
 يشوق إلى قراءتهما . ولم يكتف بهذا التشويق العام ، فقد أدخل فى الأخبار  
 والأقاصيص عناصر كثيرة منه تدفع العامة والخاصة إلى الشغف بقراءة  
 الكتابين .

(٣) المحاسن والمسارى ٢ / ٤١٧ .

(١) أم عامر : الصبح .  
 (٢) المحاسن والمسارى ٢ / ٤١٣ .

## الرسائل الديوانية

مرّ بنا في العصر العباسي الأول كيف أن الدواوين كانت كثيرة ومتنوعة ، فديوان للخراج ، وديوان للنفقات وديوان للضياع وديوان للرسائل وديوان للخاتم وديوان للجيش أو دواوين ، ودواوين لشرق الدولة وغربها ، ولكل ولاية ديوان وأحياناً دواوين . وفوق كل هذه الدواوين ديوان الزمام الذي يُشرف عليها . وهذه الصورة العامة للدواوين في سامراء وبغداد كانت تقابلها دواوين أخرى في حاضرة كل ولاية . وكان لأولياء العهد والوزراء دواوين بدورهم ، وكذلك لكبار القواد ، وحتى نساء الخلفاء كان هن دواوين يقوم عليها كُتّاب ينظرون في الدخّل والخرج والنفقات .

وكان ذلك عاملاً قوياً في نشاط الكتابة إذ اشتغل بها كثيرون ، وخاصة أنها كانت تعود عليهم برواتب وأرزاق ضخمة . وكان الكاتب في دواوين الدولة إذا أظهر نبوغاً ارتقى سريعاً ، وما يزال يرتقى حتى يصبح رئيس مجموعة من الدواوين وقد يصبح وزيراً يدبّر أمور الدولة كلها ، فإن فاتته الوزارة أصبح والياً لمدينة كبيرة مثل إبراهيم بن المدبر الكاتب إذ ولي - فيما ولي - البصرة . وكثير من الولاة كانوا يستقنون الكتابة مثل محمد بن عبد الله بن طاهر وأخيه عبيد الله حاكمي بغداد بالتعاقب .

وكانت الدواوين في سامراء وبغداد لذلك أشبه بمدرسة فنية كبيرة ، يفيدُ عليها الشباب ، ويُسختَبرون اختباراً دقيقاً ، فمن نجح في الاختبار وُظِّفَ فيها ، ولزم غيره من الكتاب القدماء وعمل بين أيديهم . ويدبج بعض الرسائل ، فإذا نالت رسالة حُظُوَّة من رئيس الديوان تمّ له سَعْدُه . وربما ألحقوهم ببعض الولاة أو العمال ، وقد يقفزون بهم قفزاً إلى القيام على أحد الدواوين . ولا ريب في أن ذلك جعل التنافس على النهوض بالكتابة فيها يبلغ الذروة ، وهو تنافس دفع إلى التثقف

الواسع بكل ألوان الثقافات ، وفي مقدمتها الثقافة اللغوية ، ومرّ بنا كيف أن ابن قتيبة ألّف لهم في ذلك كتابه « أدب الكاتب » . ولا بد من إتقان الفقه لحاجة الكاتب إليه في شئون الحجاج ، وأيضاً لا بد من إتقان الحساب لنفس الغاية . وكانوا يُكَيِّبُونَ خاصة على علوم التنجيم والمنطق والهندسة وعلى الفلاسفة مما جعل ابن قتيبة يظنّ بهم الظنون وأنهم يغرقون إلى آذانهم في علوم اليونان وفلسفتهم حتى ليفوتهم إتقان العربية . وتوفّروا على ما تُرجم من الثقافة الهندية من الحكم والقصص وكذلك على ما ترجم من الثقافة الفارسية مما يتصل بتقاليد الساسانيين وأنظمة الحكم وآداب السياسة وأخبار ملوكهم ووزرائهم . فكل ذلك كانوا يعكفون عليه ويتزوّدون به ، حتى يستمدوا منه في معانيهم ومنطقهم . وكانوا يلتزمون الوضوح لأن رسائلهم توجّه إلى العامة ولا بد أن تتفهّم ما تسمع دون حاجة إلى شرح أو بيان . كما كانوا يلتزمون فيها شيئاً من التتميق حتى تنال استحسان مَنْ يكتبون عنه من الخلفاء والوزراء والولاة والأمراء والقواد . وكانت الرسائل تتناول جميع شئون الدواة من منشورات تتصل بأهل الذمة أو الرعية ومن ولاية عهود أو بيعة خليفة أو ختاع أو دعوة إلى الجهاد في سبيل الله أو تولية وزير أو وال أو تنويه بموسم حج أو عيد أو أخبار الولايات أو أمر بمعاينة بعض الجناة . وتفنّنوا في المقدمات وخاصة في التحميدات وما اتصل منها برسالة الخديس التي كانت تُكْتَبُ إلى الولايات حين يستولى خليفة على مقاليد الحكم .

ونحن نعرض طائفة من الكتاب مرتّبين على عهود الخلفاء لتبين من خلال كتاباتهم روعة بيانهم من جهة وما حدث من تطور في الكتابة الديوانية وأساليبها في العصر . ومعروف أن أول كاتب نابّه يلقانا في العصر هو إبراهيم بن العباس الصولي الذي حرّر أكثر ما صدر عن المتوكل من منشورات وكتب ورسائل في الفتوح ، ولن نقف عنده لأننا سنخصه بمحدث مفصل في الفصل التالي . ومن كتّاب المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذي استكتبه سنة ٢٣٦ ، ثم جعله وزيره ولببحترى فيه مدائح مختلفة ، وقد احتفظ له الطبرى برسالة كتب بها عن الخليفة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد يأمره بضرب رجل ألف سوط لِمَا صحّ من شهادة شهود كثيرين عليه بشتمه لأبي بكر وعمر والسيدة عائشة والسيدة

حفصة زوجي الرسول ، والرسالة تخلو من السجع ومحاولة التمنيق<sup>(١)</sup> .

ويدخل عصر المنتصر ، ويستوزر أحمد بن الحصب ، وكان كاتباً أديباً ، مما جعله يعهد إليه بكتابة الكتب التي تصدّر عنه ، وكان من أوائلها كتاب في الجهاد كتبه لسبع ليال خلت من المحرم سنة ثمان وأربعين ومائتين حين اتجه وصيف إلى الغزو في أرض الروم ، وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

« قال عزّ وجلّ آمراً بالجهاد مفترضاً له : ( انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) . وليست تمضي بالمجاهد في سبيل الله حال لا يكابد في الله نصيباً ولا أدنى ، ولا يُسْتَفَقُ نفقة ولا يقارع عدواً ، ولا يقطع بلداً ، ولا يطأ أرضاً ، إلا وله بذلك أمر مكتوب وثواب جزيل وأجر مأمول ، قال الله عزّ وجلّ : ( ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ<sup>(٣)</sup> فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطِئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفْرَانَ وَلَا يُنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُسْتَفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) . . . وليس من شيء يتقرّب به المؤمنون إلى الله عزّ وجلّ من أعمالهم ، ويستسعون به في حطّ أوزارهم وفكّك رقابهم ، ويستوجبون به الثواب من ربهم إلا والجهاد عنده أعظم منه منزلةً ، وأعلى لديه رتبةً ، وأولى بالفوز في العاجلة والآجلة ، لأن أهله بذلوا لله أنفسهم ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وممحوها بها دون من وراءهم من إخوانهم وحرّيم المسلمين وبسيّضتهم ووقّتموا (قمعوا) بجهادهم العدو » .

وصياغة الكتاب جزلة رصينة ، وفيها محاولة واضحة للدقة في التعبير وأن يروق السمع والذهن ، ولكن لا بسجع ، وإنما بعبارات متوازنة متقابلة . مما يشهد لابن الحصب بأنه كان كاتباً مجيداً . واحتفظ الطبري له بكتاب ثان خلع فيه المنتصر أخويه المعز والمؤيد<sup>(٤)</sup> ، نحا فيه منحى الكتاب السابق في الصياغة . ويتولى المستعين الخلافة ، ويتخذ سعيد بن حميد أحد الكتاب البلغاء على

(٣) مخمصة : جوع شديد .

(٤) طبري ٩ / ٢٤٧ .

(١) طبري ٩ / ٢٠٠ .

(٢) طبري ٩ / ٢٤١ .

ديوان رسائله ، وسنخضه بحديث مستعمل في الفصل التالي . وسرعان ما يتولّى المعتز الخلافة ، ويستوزر أحمد بن إسرائيل ، ويقول الفخرى إنه أحد الكتاب الحُدّاق الأذكياء<sup>(١)</sup> . وكان من كبار ولائه وأقربهم إلى نفسه محمد بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد ، وكان أديباً بارعاً ، وفي الطبرى رسالة له وجهه بها إلى عمّال النواحي حين أعطاهم المعتز الحق في التنكيل بأعدائه ، وهي تمتلئ وعيداً وتهديداً على هذا النمط<sup>(٢)</sup> :

« أما بعد فإن زيغ الهوى صدّف بكم عن حزم الرأي ، فأقحمكم حياثل الخطأ ، وأو ملّكم الحق عليكم وحكمتم به فيكم لأوردكم البصيرة ونفسي غيابة<sup>(٣)</sup> الحيرة ، والآن فإن تجنحوا للسلم تحقنوا دماءكم وترغدوا عيشكم ويصنح أمير المؤمنين عن جريرة جارمكم<sup>(٤)</sup> ، ويسبغ النعمة عليكم ، وإن مضيتم على غلّوائكم وسوّل لكم الأمل أسوأ أعمالكم فسأذنوا بحرب من الله ورسوله بعد نسيب المعذرة إليكم وإقامة الحجة عليكم . ولئن شنت الغارات وشبّ ضرام<sup>(٥)</sup> الحرب ، ودارت رحاها على قطنها وحسّمت<sup>(٦)</sup> الصوارم أوصال حماتها ، واستجرت<sup>(٧)</sup> العوالى من نهمها ، ودعيت<sup>(٨)</sup> نزال<sup>(٩)</sup> ، والتحم الأبطال ، وكلمت<sup>(٩)</sup> الحرب عن أنيابها أشداقها ، وألقت للتجرّد عنها قناعها . واختلفت أعناق الخيل ، وزحف أهل النجدة إلى أهل البغنى لتعلمن أيّ الفريقين أسمع بالموت نفساً ، وأشدّ عند اللقاء بطشاً ، ولات حين معذرة ، ولا قبول فدية ، وقد أعذر من أنذر (وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون) » .

وصياغة الرسالة صياغة مضبوطة محكمة ، ويكثر فيها التقابل بين العبارات ويكثر التفاضل واستخدام كلمات القرآن الكريم وبعض آيه مثل : (فإن تجنحوا للسلم) ومثل : (فسأذنوا بحرب من الله ورسوله) و(وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون) ، مما يدل على تمكن الكاتب من العربية والثقافة الإسلامية القرآنية ، وقد استخدم كلمة :

- |                                   |   |
|-----------------------------------|---|
| (١) الفخرى ص ١٨٢ .                | (٦) حسمت : قطلت .                       |
| (٢) طبرى ٩ / ٣٦٧ .                | (٧) استجرت : اجترت .                    |
| (٣) غيابة : غشاوة .               | (٨) دعيت نزال : كناية عن احتدام الحرب . |
| (٤) جريرة جارمكم : جريرة مذنبكم . | (٩) كلمت : كشرت .                       |
| (٥) ضرام : وقود .                 |   |

« واستجرت » بدلا من كلمة : « واجتريت » دلالة على قدرته في القياس والتصريف ، وأتى بأمثال مختلفة مثل : « ودعيت نزال » وهو مثل يضرب لاحتدام الحرب ، ومثل : « من أعذر فقد أذدر » . وشيء أهم من ذلك كله واضح في الرسالة وضوحاً بيّناً ، وهو كثرة الصور فيها مثل غيابة الخيرة وإسباغ النعمة وضرام الحرب و « دارت رحاها على قطبها ، وحسمت الصوارم أوصال حمايتها واستجرت العوالى من نهمها . . . وكلدحت الحرب عن أنيابها أشداقها وألقست للتجرد عنها قناعها » . صور متراكمة ، قصد إليها الكاتب قصداً ليدل على براعته الفنية ، وأنه ليس الشعر وحده الذى يستطيع أن يحمل حشود الصور ، فالنثر بدوره يمكن أن يحمل منها ما يحمل الشعر ، بل يمكن أن يزداد حملة وأن يصبح صوراً خالصة يأخذ بعضها بزمام بعض .

ويخلف المعترز المهتدى ، وهو أعظم خلفاء العصر سيرة حميدة وتقوى وورعاً وعبادة ، وكان كما مرّ بنا يخطب في الناس كل جمعة يعظهم ويذكرهم الآخرة ، وكان يعمل في دواوينه سعيد بن عبد الملك ، ويقول صاحب الفهرست : البلغاء الحديثون ثلاثة : الحسن بن وهب وإبراهيم بن العباس الصولى وسعيد بن عبد الملك (١) ، وله كتاب في التنويه بخليفة وخطابته في عيد الفطر . ولا نرتاب في أنه يريد المهتدى ، لأن من وليه من خلفاء القرن الثالث كانوا يندبون عنهم من يخطب يوم الجمع ، ومرّ بنا ما أصاب المعتضد من حصر حينما حاول الخطابة في أحد الأعياد ، فالمهتدى المقصود بتلك الرسالة ، وفيها يقول (٢) :

« أدام الله صلاح الأمة ولا أخلاها من بركة رعايته ، ومن ولايته وسياسته ، ولا زالت في كنف السلامة بسلامته ، وظلّ العافية بعافيته ، وعلى سبيل نجاة هدايته . وقد كتبتُ إلى أمير المؤمنين فيما وليه الله به في نخرجه إلى عيده من يوم فطره وما وقته له من التقرب إليه بوسائل التذلل في طاعته والاجتهاد في شكره والمناصحة في مخاطبة من حضره وإنصاتهم لوعظه وتذكيره ، وما وليه الله به من العافية والسلامة الشاملة ، والنعمة الكاملة ، والعز الموصول بالسكينة . . . منّا من الله خصّ به

خليفته وأعطاه فضل مزيته بما وفقه له من العدل والنصفه ، والبر والمرحمه ،  
والعطف والرأفة » .

وفي هذه الفقرة ما يصور كيف أخذ كتّاب الرسائل الديوانية منذ أواسط القرن  
الثالث الهجرى يصطنعون السجع في جوانب من رسائلهم على نحو ما نرى الآن  
عند سعيد بن عبد الملك ، وحقاً أخذ السجع يدخل في الرسائل الشخصية منذ  
القرن الثاني كما صور ذلك كتابنا العصر العباسي الأول على نحو ما يلقانا في رسالة  
ابن سيابة المشهورة ، ولكن الرسائل الديوانية ظلت تُكتب بأسلوب مرسل ، يشيع  
فيه أحياناً الازدواج ، أما السجع فيندر أن نلتقى به في تلك الرسائل ، وكأن الأذواق  
أخذت تستعد لشيوعه وانتشاره في الكتابة الديوانية لهذا العصر .

ويخلف المهتدى المعتمد . ويظل وزيراً له ، كما كان وزيراً لسابقه ، سليمان بن  
وهب ، ويقول الفخرى (١) عنه : أحد كتّاب الدنيا ورؤسائها فضلاً وأدباً وكتابة  
وأحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم ، ويروى عنه أنه كان يكتب ، في أول عهده  
بالعمل ، بدواوين الدولة بين يدي محمد بن يزيد وزير المأمون . وكان إذا انصرف في  
الليل إلى داره ناب عنه في دار المأمون أحد الكتاب الصغار بالنوبة لمهمّ عساه  
يعرض في الليل . يقول سليمان : وبينما أنا نائب عنه في إحدى الليالي إذ طلبني  
المأمون ، فقال لي : اعمل نسخة في المعنى الفلاني ، ووسّع بين سطورها وأحضرها  
لأصلح منها ما أريد إصلاحه ، فخرجت سريعاً وكتبت الكتاب وبسّضته وأحضرته إليه ،  
فلما رأني قال : كتبت مسودة ؟ قلت : بل كتبت الكتاب ، فقال : بسّضته ؟  
قلت : نعم ، فزاد في نظره إلى كالمعجب مني ، فلما قرأه تبينت الاستحسان على  
وجهه ، وقال : يا صبي لا أدري من أي شيء أعجب أمن سرعة فهمك أم من  
من حسّن خطك ، بارك الله فيك . ونعجب أن يظل سليمان بن وهب يعمل في  
الدواوين ويكتب رسائل ديوانيه مختلفة حتى عصر المعتمد ومع ذلك لا تحتفظ به  
كتب الأدب برسالة واحدة من تلك الرسائل ، وحتى رسائله الشخصية لم تحتفظ  
منها إلا بما كتبه شعراً على نحو ما يلاحظ قارئ ترجمته في الأغاني ، وإلا فقرة  
نثرية من كتاب اعتذار على هذا النحو (٢) :

« أنا مقرٌ معترف ، فما تُترك صانعاً بمن أعلمك زمامه ، وأمكنك من قياده ، وحكمتك في أمره ، معاقباً له أو مفضلاً عليه بالعفو عنه ؟ لكني أرجو أن أستقبل طاعة لا تمتنع من شكرها ، واغتفار كل تقصير خيلاً في جنبها ، فالأيام بما تحب أمامك » .

والقطعة قصيرة ، ولكنها على كل حال تصور صياغةً جزلةً رصينة ، كما تصور ذوقاً مهذباً في الاعتذار والاستعطف ، حتى يجعل زمامه وقياده بيد صديقه ويحكمه في أمره ، وله الخيار إما أن يعاقب ، وإما أن يتفضل بالعفو . وكان يكتب بين يديه حين وزر للمعتد أبو العباس أحمد بن ثوبة ، وهو من أعلام الكتاب في العصر ، وسنخسه في الفصل التالي بحديث مستقل .

وكان يلي وزارة المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وفيه يقول الفخرى (١) :  
« من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب ، وكان بارعاً في صناعته حاذقاً ماهراً لبيباً جليلاً ، مات للمعتضد جارية كان يحبها فجزع عليها ، فقال له عبيد الله بن سليمان : « مثلك - يا أمير المؤمنين - تهون المصائب عليه ، لأنك تجد من كل مفقود عوضاً ، ولا يجد أحد منك عوضاً ، وكان الشاعر عسّاك بقوله :

يُبْكِي علينا ولا نَبْكِي على أحدٍ لنحن أغلظُ أكباداً من الإبلِ »

وليس بين أيدينا من رسائل عبيد الله الديوانية إلا رسالة كان قد أمره المعتضد بإنشائها في لَعْن معاوية ، حتى يقرأ بها الخطباء بعد صلاة الجمعة على المنابر ، وقد استهأسها عبيد الله بالتمهيد قائلاً (٢) :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله العلى العظيم ، الحلِيم الحكيم ، العزيز الرحيم ، المنفرد بالوحدانية ، الباهر بقدرته ، الخالق بمشيئته وحكمته ، الذي يعلم أسرار الصدور وضمان القلوب لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات العُلا ، ولا في الأرضين السفلى ، قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، وضرب لكل شيء أمداً ، وهو العليم الخبير . والحمد لله الذي برأ خلقه لعبادته ، وخلق عباده لمعرفة ، على سابق علمه في

طاعة مطيعهم ، وماضى أمره في عصيان عاصيهم ، فبين لهم ما يأتون وما يتقون ، ونهَج لهم سبيل النجاة ، وحذّرهم مسالك الهلكة ، وظاهر عليهم الحجة ، وقدّم إليهم المَعذرة ، واختار لهم دينهم الذى ارتضى لهم وأكرمهم به . وجعل المعتصمين بحبله والتمسكين بعُرْوته أوليائه وأهل طاعته ، والعاندين عنه والمخالفين له أعداءه وأهل معصيته ( لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا وَيَحَيِّبَ مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِنَا وَإِنِ اللَّهُ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ) . والحمد لله الذى اصطفى محمداً رسوله من جميع بريته ، واختاره لرسالته ، وابتعثه بالهدى والدين المرتضى إلى عباده أجمعين ، وأنزل عليه الكتاب المبين المستبين ، وتأذّن له بالنصر والتدكين ، وأيدّه بالعز والبرهان المثين ، فاهتدى به مَنْ اهتدى ، واستنقذ به مَنْ استجاب له من العمى ، وأصلَّ مَنْ ( أُجِرَ وتولّى ) حتى أظهر الله أمره ، وأعزّ نصره ، وقهر مَنْ خالفه ، وأنجز له وعده ، وختم به رُسُلَه ، وقبضه مؤدّباً لأمره ، مبلغاً لرسالته ، ناصحاً لأُمَّته ، مرضياً مهتدياً إلى أكرم مآب المنقلين ، وأعلى منازل أنبيائه المرسلين ، وعباده الفائزين ، فصلى الله عليه أفضل صلاة وأتمّمها ، وأجلّها وأعظّمها ، وأزكاها وأطهرها ، وعلى آله الطيبين .

ويكثر السجع في مقدمة هذه الرسالة التي كتبت لسنة ٢٨٤ وهو شيء طبيعي ، فقد دخل السجع الرسائل الديوانية ، وحقاً لم يطرد فيها بعد ، حتى في هذه الرسالة نفسها فإن عبيد الله تخلص بعد ذلك منه في الرسالة . وقد مضى يصور استجابة نبي هاشم للرسول عليه السلام حين دعا قومه للهدى ومؤازرتهم له ومناصرتهم بينما كان ممن عانده ونازده وكذبه وحرابه أبو سفيان بن حرب وأشياعه من بني أمية ، حتى علت كلمة الله وهم لها كارهون . ثم يذكر آثاراً في ذم أبي سفيان وابنه معاوية وما كان من حربه لأفضل المسلمين في الإسلام مكاناً وأقدمهم إليه سبقاً وأحسنهم فيه أثراً وذكراً على بن أبي طالب . ويذكر أعمال معاوية وكيف أنه أباح المحارم ومنع الحقوق أهلها وقتل صبياً نقرأ من خيار التابعين ويعرض أعمال يزيد بن معاوية وإيقاعه بأهل الحرّة وسفك دم الحسين مع موقعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه منه ومنزلته من الدين والفضل ، اجترأ على الله وكفراً بدينه وعداوة لرسوله ومجاهدة لعِشرته واستهانة بحرمته . ويذكر ما كان من

بنى مروان من تعطيل كتاب الله وأحكامه ونصبهم المجانيق على بيته ورميهم له باليران استباحه وانتهاكاً ، ويختمها بقوله :

« أيها الناس بيننا هداكم الله ، ونحن المستحفظون فيكم أمر الله ، ونحن ورثة رسول الله والقائمون بدين الله : فقفوا عند ما نقفكم عليه . وانفذوا لما نأمركم به ، فإنكم ما أطعتم خلفاء الله وأئمة الهدى على سبيل الإيمان والتقوى . وأمير المؤمنين يستعصم الله لكم ، ويسأله توفيقكم ، ويرغب إلى الله في هدايتكم لرشدكم وفي حفظ دينه عليكم ، حتى تلقوه به مستحقين طاعته مستحقين (حاملين) لرحمته » .

وراجع المعتضد نفسه ، وخشى أن يجمع الكتابُ قلوبَ العامة حول العلويين ، لما كان لجدِّهم على بن أبي طالب من بلاء عظيم في إعلاء كلمة الله وإلقاء كفار قريش له عن يدٍ وهم صاغرون . وفي الكتاب إطراء عظيم له ولأبنائه . فأمسك عما كان عزم عليه . وواضح من الفقرة الأخيرة أن عبید الله كاتبه ، إن كان تخلص من السجع بعد تقديمه فإنه ظل يحتفل بصياغته ، ويبدو أنه كان يستخدم السجع في جوانب من كتابته في الحين بعد الحين . وخاصة في توقيعاته ، فقد كتب إليه أبو العيناء يذكره بأمره وأنه من زرعه وغرس يده ، فوقَّع في رقعة<sup>(١)</sup> :

« أنا - أسعدك الله - على الحال التي عهدت ، وميسلي إليك كما علمت ، وليس من أنسيناه أهملناه . ولا من أخرناه تركناه ، مع اقتطاع الشغل لنا ، واقتسامه زماننا ، وكان من حتمك علينا أن تذكرنا بنفسك ، وتعلمنا منا أمرك ، وقد وقَّعت لك برزق ( راتب ) شهرين لتزيج علتك وتعرفني مبلغ استحقاقك ، لأطلق لك باقي أرزاقك ، إن شاء الله ، والسلام » .

والتوقيع - كما هو واضح - سجع خالص . وسرى عما قليل أن سرعان السجع في الرسائل الشخصية طوال القرن الثالث الهجري كان أقوى منه في الرسائل الديوانية ، حتى إذا كان عصر المقتدر ( ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ ) أخذ السجع يعم في جميع ما يصدر من الرسائل الديوانية ، فليس هناك وزير ولا كاتب في الدواوين إلا وهو يتأنق في كتابته ويبالغ في تأنقه حتى يجعل كتابته سجعاً خالصاً . وبذلك

أخذ كل ما يصدر عن الخليفة منذ سنة ٣٠٠ للهجرة يوشى بالسجع<sup>(١)</sup>، وبالمثل ما يصدر عن وزرائه وفي مقدمتهم ابن الفرات . وكان على بن عيسى الوزير لا يقل عناية عنه بالسجع ، وقد ذكر له الهلال مجموعة كبيرة من رسائله كلها مسجوعة ؛ ومثله وزير المقتدر الثالث الخاقاني ، فقد كان شغوفاً بالسجع شغوفاً شديداً ، وتروى له في ذلك نوادر كثيرة ، منها أن عامل النيل أحد فروع الأنهار في العراق تأخر في حمل غلّة إليه ، فكتب إليه هذه العبارات : « احمل الغلّة ، وأزح العليّة ، ولا تجلس متودّعاً في الكليّة (الستر) » ولاحظ أنه قد حشر الكليّة في الكلام لاستكمال السجع ، فالتفت إلى الكاتب وقال له : أفي النيل بتق يحتاج إلى كليل ؟ فقال له الكاتب مداحياً مرئياً : إى والله وأى بتق ، ومن أجله يلزم الناس الكليل ليلاً ونهاراً<sup>(٢)</sup> . ووقع في رسالة وجه بها إلى بعض عمّاله : « الزم - وفعلك الله المنهاج ، واحذر عواقب الاعوجاج ، واحمل ما أمكن من الدجاج ، إن شاء الله » ، وكان أن حمل العامل إليه دجاجاً كثيراً ، فقال : هذا دجاج وفرته بركة السجع<sup>(٣)</sup> . وكان الولاة يقلدون الوزراء في هذا البدع الحديد فقد ذكر الرواة أن الوالي على كدور الأهواز كتب إلى على بن عيسى كتاباً سجع فيه ، فكتب إليه وقد صمّم على عزله : « عولت بنا على كلام ألفته ، وخطاب سجعته أوجب صرفك عما توليته<sup>(٤)</sup> » .

وكان كتاب الدواوين على شاكلة الوزراء يستسجون في كتاباتهم ، وفي مقدمتهم محمد بن جعفر بن ثوابة القائم على ديوان الرسائل لعهد المقتدر والمتوفى سنة ٣١٢ ، وكان في باكورة حياته يكتب بين يدي عبید الله بن سليمان بن وهب ، وكلّفه أن يجيب على كتاب خمارويه حين أنفذ ابنته إلى المعتضد ، فقال في الفصل الذي احتاج فيه إلى ذكرها :

« وأما الوديعة فهي بمنزلة شيء انتقل من يمينك إلى شمالك ، عناية بها ، وحياطة عليها ، ورعاية لمودتك فيها » ، ورآه عبید الله يعجب بهذه العبارات ،

(١) تاريخ الوزراء للهلال بن الحسن ص ٣٣٧ (٢) نفس المصدر والصفحة .

وما بعدها . (٤) تاريخ الوزراء ص ٣٣٥ .

(٢) تاريخ الوزراء ص ٢٧٧ .

فأخذ ينقدها له قائلاً : « تفاءلت لامرأة زُفَّت إلى زوجها بالوديعة ، والوديعة مستردّة . وقولك من يمينك إلى شمالك أقبح ، لأنك جعلت أباهما اليمين وأمير المؤمنين الشمال ، ولو قلت : بمنزلة شيء انتقل من حال إلى حال لكان أحسن . وكان خيراً من ذلك كله أن تقول :

« وأما الهدية فقد حسنَ موعِعتها منا ، وجعلَ خطرَها عندنا ، وهي وإن بعدت عنك بمنزلة ما قرب منك لتفتقدنا لها ، وأنسنا بها ، واسرورها بما وردت عليه واغتباطها بما صارت إليه » لكان أحسن<sup>(١)</sup> .

وواضح ما حمل نقد عبيد الله بن سليمان إلى الشاب في مطالع عمه بالدواوين من لفت قوى إلى العناية بصياغته ومعانيه وكأنه هو الذى حمّله على أن يأخذ نفسه بتكليف شديد . ومعروف أن عبيد الله توفى سنة ٢٧٨ ، ولا نصل مع محمد بن جعفر إلى عصر المقتدر ، حتى يصبح أكبر كاتب في دواوينه ، وحتى يُعْهَد إليه بتولى ديوان الرسائل ، ويأخذ حينئذ نفسه بالحرص على السجع في كل ما يتصدّر عنه ، على نحو ما يصور ذلك منشورٌ وجهته باسم الخليفة المقتدر إلى العمال في البلدان المختلفة ينوّه فيه بابن الفرات في وزارته الثانية لسنة ٣٠٤ ، وفيه يقول<sup>(٢)</sup> :

« لما لم يجد أمير المؤمنين غِنَى عنه ، ولا للملك بُدّاً منه . وكان كتاب الدواوين على اختلاف أقدارهم ، وتفاوت ما بين أخطارهم مقرّين برياسته ، معترفين بكفائيته ، متحاكين إليه إذا اختلفوا واقفين عند غايته إذا استبقوا ، مدعين بأنه الحوّل القلْب ، الحنك الجرب ، العالم بيدرة المال كيف نُحْسَب ، ووجوهه كيف تُطَلَب ، انتصاه<sup>(٣)</sup> من غمده ، فعاود ما عُرِف من حدّه ، فنفضّ الأعمال كأن لم يغب عنها ، ودبّر الأمور كأن لم يسخل منها » .

فالسجع أصبح ظاهرة عامة في الرسائل الديوانية ، ويبدو أن ابن مُقْتَلَة وزير المقتدر والخلفاء من بعده كان يستخدمه ، إن لم يكن دائماً ففي الحين بعد الحين ، وكان كاتباً بليغاً ، وفيه يقول الصولى : « ما رأيت وزيراً منذ توفى القاسم بن عبيد الله

أخرى له مسجوعة في الهدايا ص ٢٠ .

(٣) انتصاه : سلّه .

(١) معجم الأدباء ١٨ / ٩٨ وزهر

الأدب ٢ / ٢٨٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٨ / ٩٧ وانظر رسالة

ابن سليمان بن وهب (وزير المكتفي) أحسن حركة ، ولا أظرف إشارة ، ولا أملح خطأ ، ولا أكثر حفظاً ، ولا أسلط قلماً ، ولا أقصد بلاغة ولا آخذَ بقلوب الخلفاء من ابن مقبله<sup>(١)</sup> وهو صاحب الخط الذي تضرب به الأمثال ، وهو أول من نقله من الوضع الكوفي إلى الوضع الذي شاع في العالم العربي ، وكان أول من رفع من قدره أبو الحسن بن الفرات ، وخاصة في وزارته الثانية آنفة الذكر ، حتى علت حاله وعرضَ جاهه ، ولكنه عاد فاستوحش منه ونكبه . ثم خلاص من المحنة ، واستوزره المقتدر ومن جاءوا بعده ، واحتفظ له كتاب النجوم الزاهرة برسالة أنفذ بها إلى ابن الفرات وقد طالت به المحنة ، تجرى على هذا النمط<sup>(٢)</sup> :

« أمسكتُ - أطال الله بقاء الوزير - عن الشكوى ، حتى تناهت البسوتى ، في النفس والمال ، والجسم والحال ، إلى ما فيه شفاء للمنتقم ، وتقويم للمجترم ، حتى أفضيت إلى الحيرة والتبؤد ، وعيالى إلى الهتكة والتشرد . وما أبداه الوزير - أيده الله - فى أمرى إلا بحق واجب ، وظن غير كاذب . وعلى كل حال فى ذمام وحرمة ، وصحبة وخدمة إن كانت الإساءة أضاعتها فرعاية الوزير ، أيده الله تعالى بحفظه ، ولا مفزع إلا إلى الله بلطفه ، وكنف الوزير وعطفه ، فإن رأى - أطال الله بقاءه - أن يلحظ عبده بعين رأفته ، ويُنعم بإحياء مهجته ، وتخايصها من العذاب الشديد ، والجهد الجهد ، ويجعل له من معرفه نصيباً ، ومن البلوى فرجا قريباً » .

وكان السجع أصبح لغة جميع الرسائل منذ أوائل القرن الرابع للهجرة ، بل مع أواخر القرن الثالث ، فليس هناك كاتب إلا ويسجع ، وإن فاته السجع فى مكان من رسالته عاد إليه فى الأمكنة الأخرى . وقد خلف محمد بن جعفر بن ثوابه ابنه أحمد منذ سنة ٣١٢ ، وظل على ديوان الرسائل من بعده إلى أن توفى سنة ٣٤٩ ، فخلفه عليه أبو إسحق الصابى . ولا ريب فى أن أحمد مضى فى إثر أبيه يسجع فى رسائله وكل ما يصدر عنه من كتابات ديوانية ، وقد بقيت منها بقايا قليلة تصور سجعه وإغراقه فيه من مثل قوله فى وصف فتح<sup>(٣)</sup> :

(٣) الهدانى: تكلمة تاريخ الطبرى ص ١٥٨ .

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٦٨ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٢٦٨ .

« فلم يُسفر العجاج<sup>(١)</sup> إلا عن قتيل مرسل ، أو غريق معجّل ، أو جريح معطل ، أو أسير مكبّل ، أو مستأمنٍ محصّل ، أو حقيبة مألها الله بلا تعب ، أو غنيمة أفاءها الله بلا نصّب » .

وواضح من كل ما قدمنا أن السجع أصبح منذ خلافة المقتدر اللغة العامة للدواوين ، فالرسائل تمتلئ بزخارفه وآلئه . إذ غدا المثل الأعلى للجمال الفني في الكتابة الديوانية ، فلا بد فيها من قوافيه وفواصله ، ولا بد من تساوق أنغامه وألحانه في الكلام .

٥

### الرسائل الإخوانية والأدبية

رأينا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن الرسائل الإخوانية ازدهرت حينذاك ، إذ اتخذها الأدباء لتصوير عواطفهم ومشاعرهم في الحرف والرجاء والرغبة والرغبة والمديح والهجاء والتهاني والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية والاستمناح . وبذلك نافس النثر الشعري مجالاته الخاصة : مجالات الوجدان ، وأظهر الكتاب في ذلك براعة فائقة ، إذ كان كثير منهم بلغ الذروة في الفن الكتابي ، وأيضاً فإن الشعراء أنفسهم أدلوا ببدلائهم في تلك الرسائل حين وجدوها شديدة التأثير في نفوس من توجّه إليهم . وبذلك توفّر للرسائل الإخوانية كثيرون من الكتاب والشعراء النابهين ، الذين استطاعوا أن يبثوا في النثر طاقات جديدة من طرافة التفكير ودقة التعبير ، حتى لنرى قوماً إذا سئلوا عن الكلام أو الوصف هل يكون شعراً أو نثراً فضّلوا أن يكون نثراً ، فقد روى المسعودي عن أبي العباس المكي نديم محمد بن عبد الله بن طاهر أنه كان ينادمه ذات ليلة في سنة ٢٥٠ للهجرة ، فسأله أن يصف له الطعام والشراب والطيب والنساء والحيل ، فقال له : أيكون ذلك منشوراً أو منظوماً ؟ قال : لا ، بل منشوراً<sup>(٢)</sup> . فالنثر أصبح له القيدح المعلن على

(٢) مروج الذهب للمسعودي ٤/ ٧٠ .

(١) العجاج : غبار الحرب .

الشعر ، لا لأن أصحابه كانوا يرقون إلى الوظائف العليا في الدولة ودواوينها فحسب ولا لأنه كان يُختار منهم الوزراء فحسب ، بل أيضاً لأنه أصبح يضارع الشعر في التأثير في وجدان القارئ ، بما وفرّ له كتّابه العظام من جزالة الألفاظ ورسائنها ومن حسن تلاؤمها في الجرس . فالكتاب ما يزال يلائم بين لفظة ولفظة ، بل أحياناً بين حَرْفٍ وحرف ، حتى يأسرَ العقول والألباب . وكان أكثرَ من الشعر طواعية لحمل الأفكار بحكم يسرّ تعابيره وما يجرى فيها من مرونة ، مما جعل الشعراء أنفسهم يتخذونه في بعض الأحوال أداة لتصوير خواطريهم ومشاعرهم وأفكارهم ، كما ذكرنا آنفاً . وتحمل كتب الأدب كثيراً من الرسائل الإخوانية لكتّاب بارعين ، ونحن نعرض طائفة منها تصوّر مدى ما كانوا يحققونه لها من إجادة وإتقان ، فن ذلك رسالة للحسن بن وهب كتب بها إلى المتوكل في عيد نيروز ، يهنئه بالعيد ، وكلها دعاءً وابتهاجاً ، يقول (١) :

« أسعدك الله - يا أمير المؤمنين - بكرّ الدهور ، وتكامل السرور ، وبارك لك في إقبال الزمان ، وبسسطِ بيمُنّ خلائتك الآمال ، وخصّك بالمزيد ، وأبهجك بكل عيد ، وشدّ بك أزرّ التوحيد ، ووصل لك بشاشة أزهار الربيع المونق ، بطيب أيام الخريف المُعَدِّقِ ( كثير المياه ) وبمواقع تمكين لا يجاوزه الأمل ، وغبطة إليها نهاية ضارب المثل ، وعمرّ ببلاتك الإسلام ، وفسح لك في القدرة والمدة ، وأمتع برأفتك وعدلك الأمة ، وسرّ بلك ( أبلسك ) العافية ، وردّك السلامة ، ودرّعك العزّ والكرامة ، وجعل الشهور لك بالإقبال متصدّية ، والأزمنة إليك راغبة متشوقة ، والقلوب نحوك سامية ، تلاحظك عشقاً ، وترفرف نحوك طرباً وشوقاً » .

وكانت قد أخذت تشيع التهنئات بالأعياد الفارسية والإسلامية شعراً فجعلها الحسن بن وهب نثراً ، وفي رأينا أنه لم يعش طويلاً في عصر المتوكل . وكانوا قد اعتادوا كثيراً في العصر العباسي الأول أن يتهادوا التحف والظرف ، وعادة كانوا يرسلون مع الهدية بعض الأشعار ، وأخذ النثر يزاحم الشعر في هذا الموضوع ، فن ذلك أن نرى الكندي الفيلسوف المتوفى سنة ٢٦٠ كما مرّ بنا يهدى إلى بعض إخوانه سيفاً ويكتب معه (٢) :

(٢) غرر الحصاص الواضحة ص ٤٤٧ .

(١) المحاسن والأضداد ص ٢٨٥ .

« الحمد لله الذى خَصَّكَ بمَنَافِعِ ما أهدىَ إِيَّكَ ، فجعلك تهتَرُ للمكارم ، اهتزاز الصارم (السيف) ، وتمضى فى الأمور ، مضاء السيف المأثور (المئاتق اللامع) وتصون عِرْضَكَ بالإِرْفاد (الإعطاء) كما تُصان السيوف فى الأعماد ، ويظهر دم الحياء فى صفحة خَدِّكَ المَشْوَف (المجلو) كما يَشِفُّ الروق فى صفحات السيوف ، وتَصْقَلُ شرفك بالعطيات ، كما تُصْقَلُ مُتُون المَشْرِفِيَّات (السيوف) » .

والرسالة تتقدم فى السجع خُطُوةً عن سابقتها ، فإن الحسن بن وهب كان يترك السجع أحياناً أما الكندى فإنه فى رسالته يتشبه بالسجع ، وكأنما لحق عصره كانت عنايته به أقوى وأشد من عصر الحسن بن وهب . ومَرَّ بنا أبو على البصير بين الشعراء ، ويقول ابن المعتز كان كاتباً رسالياً (صاحب رسائل) ليس له فى زمانه ثاب . . . وقد قلنا فى أخبار العتّابى (وكان شاعراً كاتباً) : إن هذا قلما يتفق للرجل الواحد ، لأن الشعر الذى للكتّاب ضعيف جداً ، فإذا اجتمعا فى الواحد فهو المنقطع القرين «<sup>(١)</sup> . وقد أثرت عن أبى على البصير رسائل كثيرة ، فمن ذلك رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل مادحاً له معددا فضائله ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

« إن أمير المؤمنين لما استخلصك لنفسه ، وائتمننك على رعيته ، فنطق بلسانك ، وأخذ وأعطى بيدك ، وأورد وأصدّر عن رأيك . . . ولم يزد - أكرمك الله - رفعة وتشريفاً إلا ازددت له هيبَةً وتعظيماً ، ولا تسليطاً وتمكيناً إلا زدّت نفسك عن الدنيا عزُوفاً وتزبيها ، ولا تقريباً واختصاصاً إلا ازددت بالعامّة رافَةً وعليها حمدَ بَ ، لا يُخْرِجُكَ فرطُ النصح له عن النظر لرعيته ، ولا إثار حقه عن الأخذ بحقيها عنده . . . ولا يشغلك معاناةُ كبار الأمور عن تفقد صغارها . . . تمضى ما كان الرشد فى إمضائه ، وتُرجى ما كان الحزم فى إرجائه . . . وتلين فى غير تكبر ، وتعم فى غير تصنع ، لا يشقى بك المحقُّ وإن كان عدواً ، ولا يسعد بك المبطل وإن كان ولياً . . . وكافّة الرعية - إلا من غمط (بَطِر) منهم النعمة - مُشْنون عليك بحسن السيرة ، ويؤمن النقيبة » .

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٨ . (٢) زهر الآداب ١ / ٢٤١ .

وقدرة أبي على البصير على اختيار الألفاظ بارعة ، فقد كان يعرف كيف يختار مفرداته وكيف يؤلف بينها تأليفاً حسناً ، يجرى فيه التقابل والتوازن ، وإن لم يتجسّر في هذه الرسالة السجع ، ولكن يجرى فيها ماء ورونق . وهو لم يستق في مديح عبيد الله عبارات طنانة فحسب ، بل ساق معاني سياسية جيدة ، فهو رءوف بالشعب حديد عليه ، وحق كل فرد فوق حق الخليفة نفسه ، مدبر حازم . مترفع عن الصغائر ، في تواضع لا يسف به إلى الدنيات دون تكلف . لا يؤدي محتماً وإن كان عدواً ، ولا يسر مبطلاً وإن كان صديقاً . والرعية جميعها تحبه وتشتي عليه لسيرته وفضائله الطيبة . وله رسالة مسجوعة تدخل في العتاب أو بعبارة أدق في الهجاء كتب بها إلى أبي العيناء منافسه في منادمة الخلفاء والوزراء ، وفيها يقول<sup>(١)</sup> :

« من أبي على البصير ، ذى البرهان المنير ، المبالغ في التحذير ، المعتمد في النكير ، إلى أبي العيناء الضرير ، ذى الرأي القصير ، والمخطئ الكثير ، والإقدام بالتعير ، سلام على المخصوصين بالسلام ، من أجل حقيقة الإسلام ، المؤمنين بالحلال والحرام ، والفرائض والأحكام ، فإني أحمد الله إلى نفسه وأيامه من خسلته ، على ما هداني من دينه ، وعرفني من حقه ، وامتن عليّ به من تصديق رسله . . . أما بعد فإنك الرجل الدقيق حسبه ، الرديء مذهبه ، الدنيء مكسبه ، الخسيس مطلبه ، البديء لسانه ، المبتلى به إخوانه . . . قد صيرت الفحة (الوقاحة) جنّة (وقاية) وشتم الأعراس سنّة . . . صديقك على وجل منك إن شاهدته عافك ، وإن غبت عنه خافك ، تسأله فوق الطاعة ، وترهقه عند الفاقة (الفقر) فإن اعتذر إليك لم تعذره ، وإن استنظرك لم تنظره (تمهل) وإن أزعج عليك لم تشكره ، لا تزيدك السن إلا نقصاً ، ولا يفيدك الغنى إلا حرصاً . . . وتعرض للناس بالسؤال ، غير محتشم من الإملال . . . من أطاعك في ماله حرّبتّه (سلبته) ، ومن منعك بعذر واضح سببتّه . . . ومن أكرمك أهنته وتناولت عليه ، ومن أهانك استكنت له ولينت في يديه . . . إرثك عن أبيك السعاية ، ونقل الأخبار والوشاية » .

والرسالة كلها - على هذا النحو - هجاء وإقذاع في الهجاء ، وقد استهلها لمصححاً إلى أن أبا العيناء لا يؤمن بحلال ولا حرام ولا بفرائض ولا أحكام مخرجاً له من الملة حامداً لنفسه هداه وتصديق الرسل الذين يكفر بهم أبو العيناء. ثم يسبه في حسبه وفي مذهبه ومكسبه واصفياً له بالخسة والذناة ، وأنه لا يحترم صديقاً مهما أكرمه ، مع الشح والتعرض للناس. بالسؤال والإلحاف فيه . ويقول له في نهاية رسالته : « قد ملستُ إلى السجع على علمي بخساسة حظه وركاكة معانيه وأفظه ، إذ كنت تَسْلُوِي به لسانك ، وتَسْنِي إِيَّاهِ عِيَانَكَ ، قطعاً لحجتك ، وإزاحة لعلتك ». وكان أبو العيناء على شاكلة أبي علي البصير يملأ رسائله بالسجع على نحو ما نجد في رسالة كتب بها إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان يشكو له ابنه محمداً إذ أهدها فرساً غير فاره ، وفيها يقول (١) :

« أعلم الوزير - أيده الله - أن أبا علي محمداً أراد أن يبرّني ففعلتني ، وأن يُرمكني فأرجلني ، أمر لي بفرس كالقضيب اليابس عَجَنَماً (هزلاً) وكالعاشق المهجور دَنَفَماً (سقمًا). قد أذكر الرواة عُرْوَةَ العُدْرِيّ ، والمجنون العامري ... قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق العلماء في الأمصار . . . وإنما أتيت من كاتبه الأعور ، الذي إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، وإن اختار لغيره أَخْبِثَ وَأَنْزَرَ (قَسَلَلْ) » .

والرسالة سجع خالص ، وكأن من الكتاب من أخذ يصطنعه منذ أوائل هذا العصر في بعض الرسائل ، فإن لأبي العيناء نفسه رسائل أخرى في الاستمناح (٢) وطلب النوال وفي الشكر (٣) ، يكتب فيها بالعبارة المصقولة والألفاظ المتخبة المختارة دون أن يعنى بالسجع وترصيفه وتنميقه . ومن الكتاب ابليغاء المعاصرين لأبي العيناء وأبي علي البصير محمد بن مكرم ، وفيه يقول صاحب الفهرست : « كاتب بليغ مترسل ، وله كتاب رسائل » (٤) ، وتدور له في الكتب مجموعة من الرسائل ، منها رسالة في الاعتذار لبعض الرؤساء على هذه الشاكلة (٥) :

- |                          |                               |
|--------------------------|-------------------------------|
| (١) زهر الآداب ٢ / ١٦٥ . | (٤) الفهرست ص ١٨٥ .           |
| (٢) زهر الآداب ١ / ٢٩١ . | (٥) عيون الأخبار ٣ / ١٠٥ وزهر |
| (٣) زهر الآداب ٣ / ٩٥ .  | الآداب ٣ / ٣٨٢ .              |

« نَسَبَتْ بِي عَنْكَ غَرَّةً (غفلة) الحَدَاثَةِ ، فَرَدَّتْنِي إِلَيْكَ التَّجْرِبَةُ ، وَبَاعَدَتْ بِي عَنْكَ الثِّقَةُ بِالْأَيَّامِ ، فَأَدْنَيْتَنِي إِلَيْكَ الضَّرُورَةُ ثِقَةً بِإِسْرَاعِكَ إِلَيَّ ، وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنْكَ ، وَبَقِيُولُكَ لِعَذْرَى وَإِنْ قَصَّرْتُ عَنْ وَاجِبِكَ . وَإِنْ كَانَتْ ذُنُوبِي قَدْ سَدَّتْ مَسَالِكَ الصَّفْحِ عَنِّي ، فَارْجِعْ فِيَّ بِمَجْدِكَ وَسُؤْدَدِكَ . وَإِنِّي لَا أَعْرِفُ مَوْقِفًا أَذِلَّ مِنْ مَوْقِفِي ، لَوْلَا أَنَّ الْمَخَاطَبَةَ فِيهِ لَكَ ، وَلَا خُطَّةً أَدْنَى مِنْ خُطَّتِي ، لَوْلَا أَنَّهَا فِي طَلْبِ رِضَاكَ » .

والرسالة محكمة ، وكل عبارة كأنما حاكتها أو قل صببتنا في قالبها يد صناع وحقاً لم يُحْمَلِ الرِّسَالَةَ بالسجع ، ولكن العبارات كلها كأنها حلي مختارة ، سواء في اصطفاء الألفاظ ، أو في توشيتها بألوان البديع ، فالغرة أمام التجربة ، والبعد أمام الدنو ، والسرعة أمام البطء . ثم تتعاقب الاستعارات والصور ، فالذنوب قد سَدَّتْ بِحِجَابِ غَلِيظِ دُرُوبِ الصَّفْحِ وَمَسَالِكِهِ ، وَهُوَ يَتَوَسَّلُ أَنْ يَرِاجِعَ فِيهِ مَجْدَهُ وَسُؤْدَدَهُ . ثُمَّ يَأْتِي التَّلَطُّفَ وَقَبُولَ الذَّلِّ وَكَأَنَّهُ يَقْبَلُهُ مِنْ حَبِيبٍ . وَهُوَ رِسَالَةٌ جَيِّدَةٌ فِي تَعْزِيَةِ سَلِيمَانَ بْنِ وَهَبٍ عَنْ أَخِيهِ الْحَسَنِ حِينَ لَبَسَ نِدَاءَ رَبِّهِ ، وَنَكَتْنِي مِنْهَا بِهِذِهِ الْفَقْرَةَ<sup>(١)</sup> :

« إِنْ الرَّمَضُ (حرقه الغيظ) وَالْهَلَعُ إِنَّمَا يَكُونَانِ لِلْمَصِيبَةِ الْخَاصَةِ الَّتِي لَا تَعْدُوُ وَصَاحِبِهَا ، وَلَا يَجِدُ مُسْعِدًا (معيناً) عَلَيْهَا ، وَلَا شَرِيكًا فِيهَا ، وَقَدْ أَعَانَكَ اللَّهُ عَلَى مَصِيبَتِكَ بِالْوَأَشِيحِ (المشتبك) رَحِيمًا بِكَ وَالْبَعِيدِ نَسْبًا مِنْكَ ، وَجَمَعَ فِي ثِقَلٍ مَحْمَلِهَا وَأَلَمٍ فَجَجَعَهَا صَدِيقَتِكَ وَعَدُوَّكَ ، وَكُلُّ مُكْتَسَبٍ مِنْهَا سِرْبَالٌ وَحِشَّةٌ ، وَمَنْطُورٌ عَلَى دَخِيلِ حَزْنٍ ، وَنَاطِرٌ مِنْ أَعْقَابِهَا فِي مَنْظَرٍ وَعَرٌّ ، فَجَمِيعُهُمْ فِيهَا مُشْتَرِكٌ ، وَأَنْتَ بِالتَّعْزِيِّ حَقِيقٌ قَسَمِينَ » .

والقطعة كالرسالة السابقة ، ألفاظها محكمة ، ويجرى فيها الطباق والتقابل والاستعارات والصور والرصف الدقيق للعبارات ، فالنسيج متين ، وعليه ألوان وصور تلفت الأذهان . ومن الكتاب البلاء أحمد بن سليمان بن وهب ، وهو من بيت كتابة ، كان أبوه وعمه الحسن من البلاء المفوهين ، وله في الصداقة رسالة كتب بها إلى بعض أصدقائه ، وفيها يقول<sup>(٢)</sup> :

(٢) معجم الأدباء ٣ / ٦٢ .

(١) جهمرة رسائل العرب ٤ / ٢٤٨ .

« ليس عن الصديق المخلص والأخ المشارك في الأحوال كلها مذهب ، ولا وراءه للوائق به مطلب ، والشاعر يقول :

وإذا يُصيبك والحوادث جَمَّةٌ حَدَّثُ حَدَاكَ إِلَى أُخِيكَ الْأَوْثَقِ

وأنت الأخ الأوثق ، والوليّ المُشْفِق ، والصديق الوَصُول ، والمشارك في المكروه والمحجوب ، قد عرَّفني الله من صدق صَفَانِكَ وكرم وفَانِكَ ، على الأحوال المتصرِّفة ، والأزمنة المتقلِّبة ، ما يستغرق الشكر ، ويستعبد الحر ، وما من يوم يأتي على إلا وثقتي بك تزداد استحكاماً ، واعتمادى عليك يزداد تأكيداً والثاماً ... وأعيذك بالله من العيون الطامحة ، والألسنة القادحة ، وأسأله أن يجعلك في حرِّزه الذي لا يُرام ، وكسَنفه الذي لا يُضَام ، وأن يحرسك بعينه التي لا تنام ، إنه ذو المَنِّ والإِنعام .

واستخدامه للسجع واضح ، وليس سجعاً متكلفاً ، مما يدل على أنه خلق صناعته ، حتى أصبح السجع ينحدر عن لسانه انحداراً سهلاً طبيعياً ، لا عوج فيه ولا التواء ، ولا تكلف ولا عثرات هنا أو هناك ، بل أسلوب مستومتناسق . ومن الشعراء الكتاب الذين نبغوا في كتابة النثر والشعر أحمد بن أبي طاهر طيفور ، ومرّت بنا ترجمة له بين الشعراء ، ويحتفظ كتابه : « اختيار المنظوم والمنثور » بطائفة من رسائله ، منها رسالة في شكر على بن يحيى المنجم على بير<sup>١</sup> واسع أغدقه عليه ، تمضى على هذا النحو<sup>(١)</sup> :

« إن أحقَّ معروف بأن يُشكَّرَ ، وبد بارّة بأن لا تُكفَّرَ ، وأحق واجب بأن يؤدَّى ، وإحسان وبير<sup>٢</sup> بأن يُجَازَى معروفك - أعزك الله - عندي ، ويدك قبلي ، وحقك عليّ ، وإحسانك إليّ ، لأن المعروف يحسن عند الأحرار موقعه ، ويجب عليهم شكره ونشره والإشادة بذكره . تتطوَّع مبتدئاً ، وتشفع ما تقدم معقباً ، وتحسِّن ربَّ ما أسديته متفضلاً ، لا أخلاك الله من بير<sup>٣</sup> وإحسان ، ولا أخلاننا منك في حال . »

والرسالة فيها سجع قليل ، ولكن له رسائل أخرى يكثر فيها السجع ، وكان

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/٣٤٤ .

كثير الهجاء للكتّاب، ويبدو أنه قلما كان أحد يسلم من لسانه، ومن هجّاهم وأقذع في هجّائهم ابن ثوبان وابن مكرم، ومن قوله في رسالة كتب بها إلى أبي علي البصير يذم له الأخير ويعدد مثالبه<sup>(١)</sup>:

«المَقْلِيّ المذمّم، المهين ابن مكرم... العاكف على ذنبه، الصادف عن ربه، الوضيع في خلائقه، العاقى على خالقه... عدوّه آمنٌ من غائلته، وصديقه خائف من بائقته... من استخفّ به أكرمه. ومن وصله صرّمه (قطعه)... يخلف ليحنت، ويعهد لينكث، إسناده عن المذمومين، وبلاغته في ذم الصالحين، وطرفه قذّف المَحْصَنَات، وسعّيه في كسب السيئات».

ولابن المعتز رسائل إخوانية كثيرة في التهنائي والتعازي والاعتذار والشوق والفراق وفي السؤال عن بعض المرضى والدعاء لهم بالشفاء، وبكل ذلك احتفظ كتاب الأوراق للصولي في ترجمته، كما احتفظ بكثير منه كتاب زهر الآداب، ويقلّ السجع في رسائله الإخوانية، ولكنه يُعَنِّي أشد العناية بصياغة كلامه، على نحو ما نرى في الرسالة التالية، وهي في تهنئة صديقه عبيد الله بن وهب وزير المعتمد في يوم عيد<sup>(٢)</sup>:

«أخرتني العلة عن الوزير - أعزّه الله - فحضرتُ بالدعاء في كتابي لينوب عني، ويَعْمُرُ ما أخلتته العوائق مني، وأنا أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير، ودون الأعياد المستقبلية فيما يُحِبُّ ويُحَسِبُّ له، ويقبل ما توسّل به إلى مَرَضَاتِهِ، ويضعف الإحسان إليه على الإحسان منه، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية، ولا يُرِيه في مسرّة نَقْصًا، ولا يقطع عنه مَزِيدًا، ويجعلني من كل سوء فداءه، ويصرف عيون الغيبر (حوادث الدهر) عنه وعن حَظِّي منه».

والرسالة أدعية للوزير الصديق، وهو يُعَنِّي فيها أشد العناية بجزالة العبارة ونصاعتها، ولكن دون أن يلجأ إلى سجع. ويحتفظ له كتاب الأوراق بفصول كثيرة من بعض رسائله، فمن ذلك فصل في الشوق يقول فيه: «إني لآسف على كل يوم فارغ منك، وكل لحظة لا تؤنسها رؤيتك، وستقيسًا لدهر كان موسرًا

(٢) زهر الآداب ١/ ٢٠٧.

(١) جمهرة رسائل العرب ٤/ ٣٥٠.

بالاجتماع معك ، معموراً بآبائناك ، جمع الله شمل سرورى بك ، وعسر بقاى بالنظر إليك»<sup>(١)</sup> . ومن ذلك فصل فى شفاعة : « موصل كتابى فلان ، وقد جعلت الثقة به مطيته إليك ، فلا تُنصِّبها (تهزطها) بِمِطْلِكِ ، وأسرع ردها بسابق لإنجازك ، وتصديق الأمل فيك والظن بك »<sup>(٢)</sup> ، ولا ريب فى أنه كان يسجع أحياناً فى بعض فصوله : « قد ملت إليك فما أعتدل ، ونزلتُ بك فما أرتحل ، ووقفت عليك فما أنتقل »<sup>(٣)</sup> وفى فصل آخر : « تولّى الله عنى مكافأتك ، وأعان على فعل الخير نيتك ، وأصحب بقاءك عزاً يبسط يدك لوليك وعلى أعدائك ، وكلاءة (حراسة) تذبُّ عن ودائع منته عندك ، وزاد فى نعمك وإن عظمت ، وبلّغك آمالك وإن انفسحت »<sup>(٤)</sup> . واه فى وصف الكتاب والقلم<sup>(٥)</sup> :

« الكتاب والنج الأبواب ، جرىء على الحجاب ، مفهم لا يفهم ، وناطق لا يتكلم ، به يشخصن (يخصر) المشتاق ، ومنه يُد آوى الفراق . والقلم مجهزٌ بجيوش الكلام يخدم الإرادة ، ولا يمل الاستزادة ، يسكت واقفاً ، وينطق سائراً ، على أرض بياضها مظلم ، وسوادها مضىء ، وكأنه يقبل بساط سلطان ، أو يفتح دُوراً بسُستان » .

والوصف يكثر فيه السجع ، كما يكثر التصوير ، فقد شخص الكتاب وجسمه فى صور كثيرة ، وبالمثل صنع بالقلم ، وأخرجه مع الصحف التى يكتبها فى صور بديعة :

وكان الكتاب يكثر من الدعوة لزيارة واقضاء بعض الوقت فى اللهو وسماع الغناء أو للسمر والطعام . وأكثروا من التهانى فى كل مناسبة فى الأعياد وفى الزواج وفى إنجاب الأولاد وفى ختانهم ، وفى الحج وقضاء مناسكه ، وفى وصف الطبيعة شتاء وفى الربيع . . . وقد تعقبنا انتشار السجع فى الرسائل الإخوانية طوال العصر ، لندل على أن ذوقاً عاماً أخذ يُعنى به ، وهى عناية جعلته يعم فى تلك الرسائل مع أواخر القرن الثالث ، بل لقد أخذ يعم — منذ أواسطه — عند أبى على

(٤) الصولى ص ٢٩٤ .

(١) أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ٢٩٢ .

(٢) الصولى ص ٢٩٠ .

(٥) الصولى ص ٢٩٢ وزهر الآداب .

٣٢/٢ .

(٣) الصولى ص ٢٩١ .

البصير وأبي العيناء في بعض رسائلهما . وقد أخذت تنتشر مع ذلك عناية  
 باصطناع الصور البيانية وبعض ألوان البديع على نحو ما لاحظنا في بعض رسائل  
 ابن مكرم ، وكأن الكاتب لا يريد أن يؤلف كلاماً فحسب ، بل يريد أن يصوغ  
 درراً ، مما هيأ لسيادة السجع وسيطرته على جميع الرسائل سياسية وإخوانية منذ عصر  
 المقتدر ، بل لقد هيا ذلك لظهور كتاب الألفاظ الكتابية التي ألف فيها عبدالرحمن  
 ابن عيسى الهمداني المتوفى سنة ٣٢٠ كتابه الذي وقفنا عنده في موضع آخر ،  
 وهو يدل بوضوح على أنه أخذت تسود فكرة النموذج في الكتابة : في التهاني  
 والتعازي والبشارة والإنذار والاعتذار ، وأيضاً في كتابة الرسائل الديوانية ، في كل  
 ذلك درر من السجع والصور تحفظة وتصحيح مادة للكتّاب ، تُعينهم في كتابة  
 الرسائل ، وكأنما كان صنيع الهمداني نذيراً بجمود النثر العربي وأن يصبح صيغاً  
 برّاقة ، تخلب بما فيها من أسجاع قبل أن تخلب بما فيها من معان .

ولم يقف انتشار السجع وشيوعه عند الرسائل الإخوانية والديوانية ، فقد أخذ  
 يشيع في الرسائل الأدبية الخالصة ، وكان الجاحظ قد أشاع في تلك الرسائل أسلوب  
 الازدواج المعروف به ، غير أن من تلوّه في القرن الثالث الهجري أخذوا يدخلون  
 عليها السجع ويكثر منه ، على نحو ما تصوّر ذلك رسالة لابن المعتز كتب بها  
 إلى بعض أصدقائه يصف سامراً ويأسى لخرابها ويندم ببغداد وأهلها ، وهي أشبه  
 بمناظرة بين البلديتين : العاصمة القديمة سامراء ، والعاصمة الجديدة بغداد ، وكان  
 قد انتقل إليها المعتمد منذ سنة ٢٧٦ وانتقل معه ابن المعتز . ولعل من الخير أن  
 نسوق أكثر هذه الرسالة الطريفة ، وهي تفيض على هذه الصورة<sup>(١)</sup> :

« كتبت إليك من بلدة قد أنهض<sup>(٢)</sup> الدهر سُكَّانها ، فشاهدُ البأس فيها  
 ينطق وحسبُ الرجاء فيها يتقصر ، فكأن عمُرانها يُطوَى وكأن خرابها  
 يُنشر ، وقد وُكِّلت إلى الهجر نواحيها ، واستُحِثَّ باقيها إلى فانيها ، وقد  
 تمزَّقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حقُّ جوار ، فالظَّاعن منها محمُّو الأثر ،  
 والمقيم بها على طرْف سفر ، نهاره إرجاف ، وسروره أحلام . . . فحالها تصف

(١) زهر الآداب ١ / ٢٠٧ وجمهرة رسائل

(٢) أنهض هنا : بعث على الرحيل .

للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض ،  
 وقرار الملك ، تفيض بالجنود أقطارها ، عليهم أردية السيوف وغلائل الحديد ،  
 كأن رماحهم قرون الوعول ، ودروعهم زبد السيول ، على خيل تأكل الأرض  
 بجوافرها ، وتند بالنتقع ( الغبار ) سرادقها ، قد نُشِرت في وجوهها غرر كأنها  
 صحائف البرق ، وأمسكها تمحجيل كأنه أسورة اللجين ، وقرطت عدراً (١)  
 كالشنوف ، في جيش يتلقف الأعداء أوائله ، ولم تنهض أواخره ، قد صب عليه  
 وقار الصبر ، وهبت له روائح النصر ، يصرفه ملك يملأ العيون جمالا ، والقلوب  
 جلالا ... قبل أن تتخب ( تعدو ) مطايا الغير ، وتُسفر وجوه الحذر ، وما زال  
 الدهر مليئاً بالنواب ، طارقاً بالعجائب ، يؤمن بيومه ، ويعتد رُعدُه . على  
 أنها - وإن جُفيت - معشوقة السكنى ، حبيبة المشوى ( المنزل ) كوكبها يقظان ،  
 وجوها عريان ( صحو ) وحصباؤها جواهر ، ونسيمها معطر ، وترابها مسك  
 أذفر ( ذكي ) ويومها غداة ( لطيف الطقس ) وإيلها سحر ، وطعامها هنيء ،  
 وشرابها مريء ، وتاجرها مالك ، وفقيرها فانك ( غير محتاج ) لا كبغدادكم  
 الوسخة السماء ، الوميدة ( الراكدة ) الهواء ، جوها نار ، وأرضها خبثار ( اينة )  
 وحيطانها نزوز ( تنز بالماء ) وتشرينها ( أكتوبر ) تموز ( بواية ) ذكم في شمسها  
 من محترق ، وفي ظلها من غرق ، ضيقة الدار ، قاسية الجوار ، ساطعة الدخان ،  
 قليلة الضيفان ، أهلها ذئاب ، وكلامهم سباب ، وسائلهم محروم ، وما لهم  
 مكتوم ، لا يجوز إنفاقه ، ولا يُحتمل خنائه ( كيسه ) وحيطانهم خصاص  
 ( أكواخ ) وبيوتهم أققاص ( ضيقة ) ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دُول ، والدهر  
 يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم .

والسجع زاخر في الرسالة كما يرى القارئ ، وكان ابن المعتز أراد أن يجعلها  
 رسالة أدبية خالصة ، فهو يختار لها الأسلوب الذي أخذ يشيع في عصره أسلوب  
 دُرر السجع ولآلته التي أصبحت موضع إعجاب الكتّاب والتي كانت تروقهم  
 إلى أقصى حد ، مما هيأ الأذواق لأن ترفع اللفظ فوق المعنى ، فالمدار على جمال

(١) العذر: جمع عذار وهو من اللجام ما سال  
 على خد الفرس. الشنوف: جمع شنف وهو القرط .

الجسد لا جمال الروح ، والعبرة بالشكل لا بالجوهر ، وبالقالب لا بما يحتويه ، وبالبريق الخارجى للمعاني لا بالبريق الداخلى . وعمّ ذلك حتى طغى فى كتابة بعض الأخبار ، وحتى نجد الخليفة القاهر ( ٣٢٠ - ٣٢٢ هـ ) يطلب من بعض أصحاب التاريخ وصّف الخلفاء العباسيين الذين سبقوه ، ويقول له : « لا تغيب عنى شيئاً ، ولا تحسّن القصة ولا تسجع فيها »<sup>(١)</sup> ، فهو لا يريد فى وصفهم إدخال زينة السجع ، حتى لا يجر اللفظ على المعنى . وكأنما أصبح السجع أسلوب الكتابة العامة واطّرد ذلك فى العصر التالى ، وظلّ آماداً متطاوأة .

وابن المعتز لا يكتفى فى هذه الرسالة الأدبية بالسجع ، بل يضيف إلى ذلك ألواناً من البديع ، إذ تطالعنا فيها توارى الطباقات . فالنهوض أو الرحيل يقابل القعود ، والياس يقابل الرجاء ، والحراب يقابل العمران ، والنشر يقابل الطمى ، والباقي يقابل الفانى ، والظاعن يقابل المقيم . ويجانب الطباقات ما اشتهر به فى شعره من كثرة التشبيهات وإيراد الصور الطريفة ، فالخيل تأكل الأرض بحوافرها وتمد من الغبار سرادقاً ضخماً يظل الجيش ، والغرر فى وجوهها كأنها صحائف البرق ، والتسحجيل فى سيقانها كأنه الأساور من فضة تحيط بها ، وما سال على حدودها من اللجم كأنه أقرط فى آذانها ، والحصباء جوهر ، والتراب مسك أذفر . وتوالى الصور والتشبيهات وابن المعتز دائماً يستمد من مخازن لا تنفذ ، مخازن تعطيه كل ما يريد من زخارف السجع وزخارف الصور والأخيلة ، وكأنه لم يلبث أن انضم بقوة إلى الركب ، ركب العناية بالوشى . ويُطيل القرن الرابع ، وإذا هذه العناية تصبح هى الذوق العام فى الكتابة الأدبية ، فليس هناك كاتب نابه إلا ويتخذ هذا الأسلوب الفنى الجديد أسلوب السجع وما يُطوى فيه من زخارف البديع .